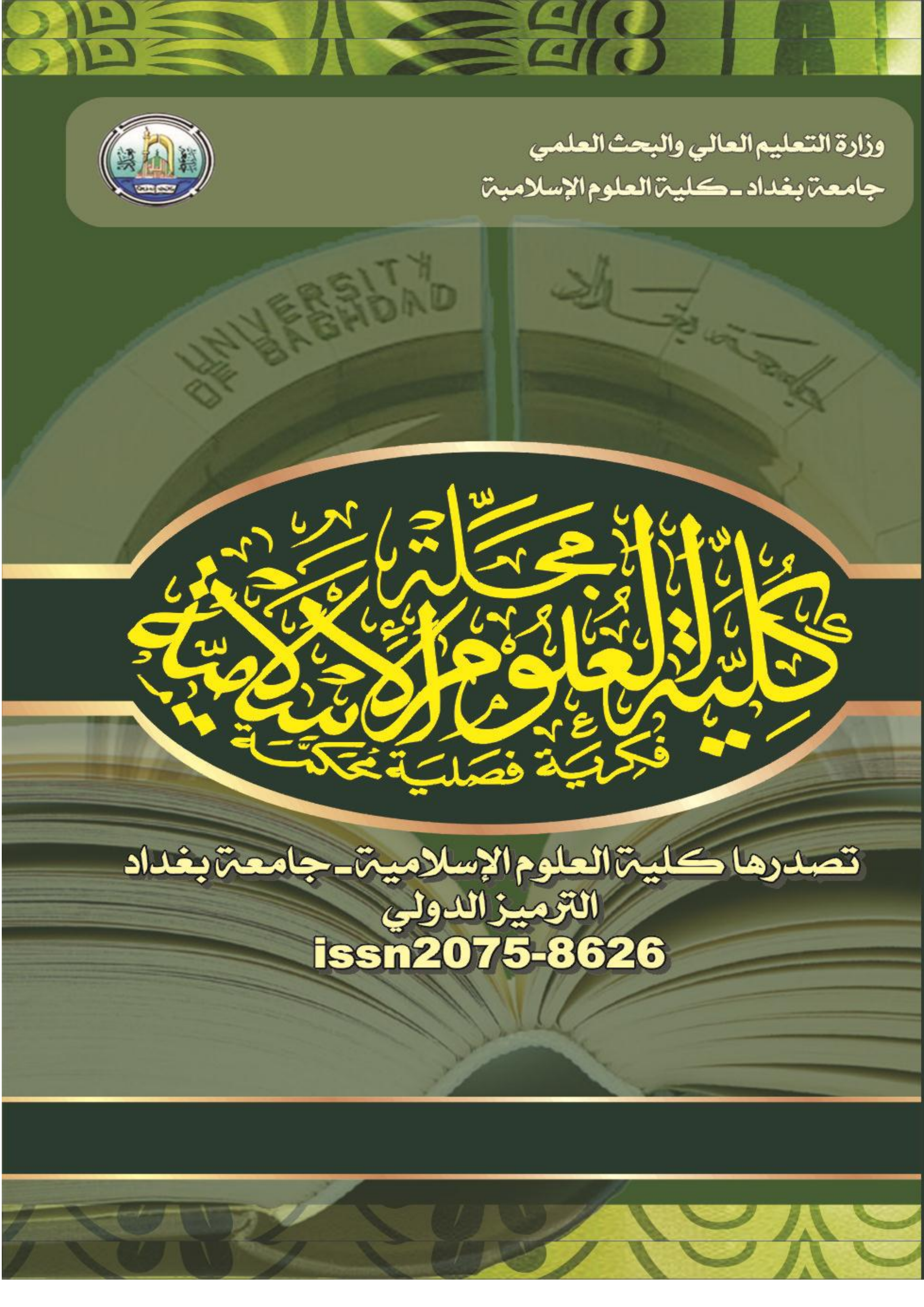
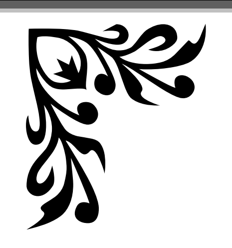
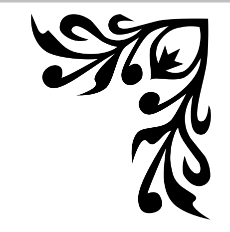

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد - كلية العلوم الإسلامية
UNIVERSITY OF BAGHDAD
مجلة كلية العلوم الإسلامية
فكرية فصلية محكمة
تصدرها كلية العلوم الإسلامية - جامعة بغداد
الترميز الدولي
issn2075-8626

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة بغداد ـ كلية العلوم الإسلامية

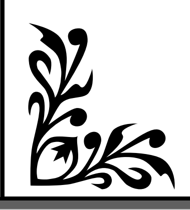
مجلة كلية العلوم الإسلامية

فكرية ـ فصلية ـ محكمة

تصدرها
كلية العلوم الإسلامية
جامعة بغداد

العدد (١٨)

الترميز الدولي : ISSN 2075-8626




رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٦٣٣) لسنة ١٩٩٦م

جامعة بغداد - كلية العلوم الاسلامية

محتويات العدد ١٨ لعام ٢٠٠٨

اسم البحث	اسم الباحث	الصفحة
حب الدنيا وشهواتها وافضلية لأخرة ونعيمها	د. احمد جلوب جاسم	٧
وصايا لقمان لابنه	م.م . وضاح عامر عبد الباقي	٧٨
قارون في القران الكريم	د. احمد عبد الستار الدهان	١٢٦
العناية بالقران الكريم في العهد النبوي الشريف	د.علي جمال علي	١٨٩
الرجوع في الهبة وموانعه في الفقه الاسلامي والقانون العراقي	د. ساجر ناصر الجبوري حسين احمد النجدي	٢٦٥
الوصية في المفهوم الاسلامي	عمر جاسم عنيد	٣٩٩
حكم امامة الصبي في الصلاة	د. عبد محمود عزيز صفر	٤٤٩
حكم جمع الصلاة من غير عذر عند الحاجة	د. حسين الشيخ غازي السامرائي	٥٣١
حماية الاقليات وفقا لمبدأي حق تقرير المصير والتدخل الانساني	م. م .علي حسين علوان	٥٧٨
الضوابط الفقهية واهم تطبيقاتها في باب الطهارة عند فقهاء الشافعية	د. محمد نجيب الجوعاني	٥٧٨
قضية الخلاص في الفكر الديني واثرها في التصوف الاسلامي	م.د. سعدي محمد عواد	٦٣٧
الزاهد ومتاع الحياة الدنيا	*د. عبد هادي فريج القيسي*	*٧٠٣*
الاحكام المتشابهة في الكتب السماوية المقدسة (القران والانجيل) دراسة تحليلة	د. عمر نجم الدين الجباري	٧٥٠
الاستعارة في ديوان شجر القمر لنازك الملائكة	م.م. لقاء عادل حسين	٨٤٠
غزوة دومة الجندل واثرها في عصر النبوة والخلافة الراشدة	م.م. عماد علي الشمري	٨٧٧
النظر في علم الكلام على ضوء مقاصده	د. محسن قحطان حمدان	٩١٣
الاسماء و الصفات وما اصطلحه الكلاميون	د. عبد الكريم هجيج طعمة	٩٧٤
المنهج الفقهي عند الامام القرطبي من خلال تفسيره ايات الاحكام	د. عبد الوهاب الاعظمي	١٠٢٣
الرثاء في شعر حافظ ابراهيم دراسة فنية موضوعية	م.م. خالدة عثمان فتاح	١٠٤٧
قاعدة الاصل في الاشياء الاباحة واثرها في الشريعة الاسلامية	د. ابراهيم عبد الرزاق محمود الهيتي	١١٣٠
حكم حق الانسان في الدفاع عن نفسه وحرماته في الفقه الاسلامي	د. اسماء نوري مزهر	١١٧٠

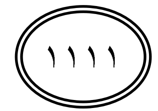
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأنبار / كلية التربية للبنات
قسم طرائق تدريس علوم القرآن و التربية الإسلامية

قضية الخلاص في الفكر الديني الهندي وأثرها في التصوف الإسلامي

م.د. سعدي محمد عواد

علم الأديان المقارنة

٢٠٠٧ – ٢٠٠٨



المقدمـــة

الحمـد لله صـاحب الفضـل والمنـة، أسـبغ علـى خلقـه بعظـيم النعمة. جلت قدرته وتقدست أسماؤه، رحيم رحمن بعباده. والصلاة والسلام على نبيه المجتبى محمد الرحمة المهداة، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وسار على خطاه الى يوم الدين.

وبعـد:

ان كثيرا من القضايا التي راودت الفكر البشري في مجاله الــديني، نجدها نابعة من ظروف موضوعية أو اجتماعية، عاشــتها الأمــم فــي تاريخها الطويل. وقضية الخلاص كفكرة بحد ذاتها ، ليست بمنأى عــن تلك الظروف التي أفرزتها بجانب قضايا أخرى. وإذا نظرنا ،ن زاويــة منبع العقائد – كونها سماوية أو وضعية – فاننا سنجد أن فكرة الخلاص من المشتركات العقائدية والفكرية بين أغلب الأمم والأديان، وان اختلفت في تفاصيلها. وحقيقة الأمر أن مرد ذلك هو الى توق الــنفس البشــرية وتطلعها الى السعادة في حياتها والاطمئنان على ما ســتؤول إليــه بعــد مفارقتها هذا العالم. وأريد أن أبحث (قضية الخــلاص) بإطــار جديــد هادف ومركز، وذلك بدراستها كظاهرة سلوكية، وليس كما تبحــث فــي فكرة المخلص الموعود. وسأتناول الخلاص في الفكر الــديني الهنــدي باعتباره مشروعا فرديا أو جماعيا أو لنقل سلوكا له سمته وفلسفته يــراد

من خلاله بلوغ غاية روحية تتمثل بالوصول الى السعادة المطلقة. وسأركز أيضا على التأثير الهندي في تشكل التصوف الإسلامي وما يقدمه هذا الإسهام في مجال تهذيب النفس والسمو بالروح من خلال ظاهرة التصوف. ولا بد أن أنوه الى أن البحث المقارن يستهويني انسجاما مع تخصصي ي مقارنة الأديان، ونحن بحاجة ماسة الى بحوث مقارنة في العقائد والأفكار المشتركة بين الأديان و الأمم .

وقد قسمت البحث الى مقدمة و مبحثين وخاتمة وكما يلي:

مقدمة : وفيها عرض لموضوع البحث وتبرير اختياره واجمال لخطة البحث.

المبحث الأول : قضية الخلاص في الفكر الديني الهندي .

وفيه ربعة مطالب :

المطلب الأول : مفهوم الخلاص في الفكر الهندي.

المطلب الثاني : منهج الخلاص في الهندوسية .

المطلب الثالث : منهج الخلاص في الجينية .

المطلب الرابع : منهج الخلاص في البوذية

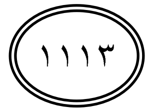
المبحث الثاني : التصوف الإسلامي بين الأصالة والتأثر :

المطلب أول : مفهوم التصوف الإسلامي.

المطلب الثاني : مصادر التصوف الإسلامي.

المطلب الثالث : خصائص التصوف الإسلامي وتصوراته .

المطلب الرابع :عناصر التأثير الهندي في التصوف الإسلامي.



خاتمة : وفيها استنتاجات الباحث وأهم ما توصل إليه.

وابتداءاً أرجو أن أقدم في بحثي لهذه القضية جانبا من معتقدات هذه الأمة – الهندية – بما تمتلكه من رصيد ثقافي زاخر، وأثره في مجال التصوف الإسلامي، والذي دخل أو تداخل الى أحد جوانب الفكر الإسلامي من خلال احتكاك المسلمين بغيرهم من الأمم بعد امتداد الفتوحات الإسلامية، وهذا لأمر يثري رصيد الأمة ولا ينتقص منها، كون التلاقح الفكري والثقافي الايجابي هو أحد خصائص الأمة الحية.

والله أسأل التوفيق والسداد ،

انه نعم المولى ونعم النصير

الباحث

المبحث الأول

قضية الخلاص في الفكر الديني الهندي

المطلب الأول

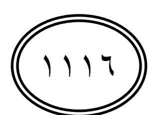
مفهوم الخلاص في الفكر الهندي

ان من أبرز السمات التي امتازت بها عقائد الهنود وأديانهم، هي نظرتها الى الروح كونها نقية طاهرة، وأن مصدرها موصوف بكل صفات الكمال، مما يضفي عليها القدسية الكاملة. بـ كس المادة التي نظروا إليها نظرة دونية، لاتصافها بالميول والغرائز، التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان. وهذا الأمر عندهم يمثل انحطاطا وتسفلا عن جملة القيم والمثل السامية ، مما تفقد البشر خصوصيتهم. ويرون أن الروح تبقى أسيرة طوال ملازمتها للمادة، فالأجسام لا يمة لها إذا ما جردت من سر الحياة (الروح Spirit). لذلك سعت العقائد الهندية لتخليص هذا الكائن العلوي اللطيف من ربقة المادة وقيودها، فاستخدمت أساليب القهر الجسدي المتمثل بالتقشف والرياضة الشاقة طريقا للوصول نحو الغاية الأسمى، الا وهي (الخلاص Salvation). فأهتم الهنود بالخلاص

كمشروع فردي له تعاليمه ونظامه الصارم ولم يهتموا كثيرا بـــالمخلص، لأنهم يرون أن الإنسان هو طبيب نفسه.

ونتلمس مفهوم الخلاص في أسفار" اليوبانشاد " (وذلك من خلال محاورات بين شخوصها، فتقدم لنا "الخلاص" على أنه (شوق الروح الى التخلص من العودة الى الولادة من جديد. وترى أن الإنســـان إذا اقتلـــع بالتزهد كل شهوات نفسه، لم يعد هذا الإنسان فردا جزئيا قائمـــا بذاتـــه، وأمكنه أن يتحد في نعيم أسمى مع روح العالم، وبهذا الاتحاد يخلص من العودة الى الولادة من جديد. وهذا يؤدي الى امتصاص الفرد في الوجود، بمعنى عودة لجزء للاتحاد بالكل الذي انفصل عنه حينا من الدهر؛ "فكما تتلاشى الأنهار المتدفقة في البحر، وتفقد أسماءها وأشكالها، فكذلك الرجل

) يوبانشاد: كلمة مؤلفة من مقطعين"يوبا" ومعناها"بالقرب" و"شاد" ومعناها "يجلس"؛ ومن "الجلوس بالقرب" من المعلم، انتقل المعنى حتى أصبح يـ لق على المذهب الغامض الملغز الذي كان يسره المعلم الى خيرة تلاميذه وأحبهم اليه. وفي الاسفار مائة وثمـــان محاورات مما جرى بين المعلم وتلاميذه. ألفها كثير من القديسين والحكماء بين عامي ٠٠ ، ٥٠٠ ق.م، وهي تحتوي على دروس لمحاولة فهم الحقيقة البسيطة الجوهرية التي تـ من وراء كثرة الأشياء الظاهرة. وهذه الأسفار مليئة بالسخافات والمتناقضـــات، ولكنها أحيانا أخرى تعرض ما قد يظن أنه أعمق ما ورد في تاريخ الفلســـفة مـــن ضروب الفكر { ينظر: قصة الحضارة ول ديورانت ترجمة د.زكي نجيـــب محمـــود ٣ ٤٤ ، ط ٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر ج. .ع القاهر ٩٦٨ م }.



الحكيم اذا ما تحرر من اسمه وشكله، يفنى في الشخص القدسي الذي هو فوق الجميع".)

وميزت أديان الهند الكبرى (الهندوسية، الجينية، البوذ ة) في نظرتها للإنسان بين عالمي الظاهر والحقيقة، ويرون أن الخلاص يكمن في التحرر من كل المظاهر المضللة في عالم الخبرة المادي. وهذا يعني أن الحقيقة عندهم مخبوءة وغير ظاهرة، وعلى طالبها أن لا يأمل في بلوغها كاملة في عالمنا المحسوس، فكل ما يتصوره من جوانب الحة قة لا يمثل أكثر من إطلالة عابرة من كوة ضيقة، لذلك هم رفضوا الحاضر وغادرته أرواحهم وسعت الى المطلق. ')

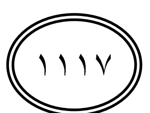
فالناحية الروحية تعتبر ميزة للشعب الهندي ، اذ حفلت حياته بنصيب وافر منها، ولا يعني هذا أن عامتهم على شيء من الصفاء الروحي، فهم يمتازون بنمو الخرافة وازد ارها بينهم، ولكنه لا يقلل من نشاط التيار الروحي، فالظروف متاحة للطرفين، والأجواء مهيئة لكليهما أن ينتجا، فالتيار الروحي ينتج حكمة وفكرا، وبجانبه الساذج يشيع الخرافة. ٌ)

وهذا التنوع سمة من سمات المجتمع الهندي الذي تتعدد أديانه وعقائده، وتنوعت لغات أهله وشع ه.

) ينظر: قصة الحضارة ٢ ٥٠

') ينظر: الأديان الحية ، أديب صعب : ص ٢٩ ، ط ٢ ، دار النهار ، بيروت ١٩٩٥م

ٌ) ينظر: مقارنة الأديان ٢٥ .



فإذا ما نجح الإنسان في هذا المسعى فانه يكون بلغ المنى وغاية المبتغى. وقد تنوعت رؤى ومناهج أديان الهند في تفاصيل المنهج الموصل الى بلوغ الروح للكمال وإحساسها بالسعادة المطلقة. فالخلاص عندهم غاية نبيلة وطرقه متعددة بتعدد أديانهم وعقائدهم، وفيما يلي بيان ا برز هذه العقائد ومناهجها في معالجة هذه القضية.

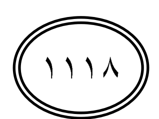
المطلب الثاني

منهج الخلاص في الهندوسية [1] (Hinduism)

الهندوسية ديانة القسم الأكبر من الهنود، وهي المنبع الأصلي لما تلاها من عقائدهم كالجينية والبوذية، وان اختلفت معهما في التفاصيل. وإذا نظرنا في فكر هذه الديانة فاننا سنجد حيزا كبيرا لقضية الخلاص وتوصيفها ورسم معالم طريقها، وذلك من خلال عنايتها بالروح والتركيز عليها في مجمل عقائدها وشرائعها. فعقائدها الأربعة (الكارما ، تناسخ

---

[1]) الهندوسية:وتسمى الهندوكية، وأطلق عليها البرهمية ابتداءا من القرن الثامن ق.م نسبة الى براهما Brahma وهو القوة العظيمة السحرية الكامنة التي تتطلب كثيرا من العبادات، ومن براهما اشتقت الكلمة(البراهمة) لتكون علما على رجال الدين الذين كان يعتقد أنهم يتصلون في طبائعهم بالعنصر الإلهي.{ينظر: مقارنة الأديان، د.أحمد شلبي : ٣٧ ط ١١ ، مكتبة النهضة ا صرية ، القاهر ٢٠٠٠م }.



الأرواح، وحدة الوجود، الانطلاق) مجتمعة ترسم طريـق الخـلاص. فالكارما تعني : قانون لجزاء، ولا يتحقق الجزاء العادل المطلق الا من خلال طريق طويل تتخلله محطات من تكرار المولد (تناسـخ الأرواح)، وبعد الجزاء وتطهر الروح بعد محطات التناسخ تستمر الدورة لتتـدمج الروح في (براهما) [1] لتتحقق وحدة الوجود، فإذا ما سلكت الروح هـذه المسالك، وجربت تلك اا حطات فإنهـا ستصـل الـى غايتهـا وهـي (الانطلاق) ، وعندها ستنعم النفس والروح بسعادة مطلقة لا تدانيها سعادة من خلال متعة جسدية أو لذة غرائزية .

ورجوع الأرواح الى مصدرها الأول وهو الله كما هو عنـدهم، أن روح كل كائن تعود في نهاية مطافها الى مصدرها الأول الذي نشأت منه وهو الله. والإنسان أحد هذه الكائنات.

ويرى الهندوس أن قانون الجزاء المسـمى باللغـة السنسـكريتية (Karma) هو الأساس الذي لا بد أن ينطبق على سائر الأحياء، وليس لأحد أن يتملص منه، فالإنسان يفعل الخير والشر، وقد يغادر الحياة مـن

) براهما Brahma : اسم الله عَزَّ وَجَلَّ في اللغة السنسكريتية. وهو (الإله الأكبر) عند البرامه بجانب فشنو Vichnou (الإله الحافظ) وسيفا Civa (الإله المدمر) وبراهما الإله الخالق كما يعتقد الهندوس ويؤمنون بأنه قد أدى دوره وهو ينعم بالراحة بعد ن ترك الإلـه الثاني (فشنو) وهو الحافظ ومدبر الكون بعده عندهم. والإله الثالث (سيفا) الـذي يتقى شره. { أنظر: المدخل الى دراسة الأديان والمذاهب ، للعميد عبد الرزاق محمد أسود ٣د ط ١ ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ٩٨١ م}.

دون أن يجازى عليها، فجميع أعمال بشر التي تؤثر في الآخرين، خيرا كانت أو شرا ، لا بد أن يجازى عليها بالثواب أو العقاب طبقا لناموس العدل الصارم.)

ومشكلة الهنود في التعاطي مع هذا المبدأ هو إمكانية مغادرة الروح هذه الحياة بدون أن تنال جزاءها خيرا أو شرا، لذلك تولدت عندهم عقيدة (تناسخ الأر‌ا‌ح) أو ما يسمى بدورة الحياة التي تتجول الروح فيها من بدن الى آخر حتى تنال جزاءها. ويعترف الهنود بصعوبة تقبل غيرهم لعقيدة الكارما.

وينقل الد ـ ور أحمد شلبي قولا من ـ وبا الى أ ـ د علمائهم اذ يقول: (لا صعوبة علينا نحن الهندوس في فهم هذا الناموس، ناموس كارما وان لم يسهل على غيرنا فهمه). ')

ويرى قسم من العلماء أن فكرة وحدة الوجود وقضية الاتحاد والحلول، قد تسللت الى بعض رجالات الفكر الصوفي '' الإسلامي

) مقارنة الأديان ٩ ٦٠ .

') المصدر السابق ٦٠ .

') الصوفي: نسبة الى (الصوفية) وهي كلمة عربية مشتقة من الصوف. إشارة الى عادة الصوفيين في لبس الخرق الصوفية البيضاء وتميزهم بها. ومصطلح (صوفي) يشير الى مجموع النساك والروحيين الذين اشتغلوا بالتصوف. وثمة تفسير آخر يعتبر أن الكلمة منسوخة ن كلمة (ophos) اليونانية. الا أن هذا التفسير لم يلق رواجا لدى المستشرقين. ويرى البيروني أنها مأخوذة عن كلمة (hilosophs) اليونانية برغم تغاير

المتقدمين، ومنهم الحلاج [1] الذي كان يعرض مذهبه، ويؤكد أن غاية الكائنات جميعا، وليس الصوفي وحده، هو الاتحاد مع الله، وهو اتحاد يتحقق بالحب ويحتاج الصوفي فيه الى عمل الهي تحويلي ينقل الموجود الى وضعه الأسمى .

وقد جسد فكرته فيما فاضت به قريحته إذ قال:

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا لخلقه ظاهرا في صورة الآكل الشارب

حرفي "الصاد" و"السين" في كلا الكلمتين: تصوف وفيلسوف. {تاريخ الفلسفة الإسلامية هنري كوربان ترجمة نصير مروة وحسن ؛ يسي: ٢٨٢ ط ٢ ، منشورات عويدات ، بيروت - باريس ٩٧٧ م }.

) الحلاج: هو أبو عبد الله الحسين بن منصور الحلاج المكنى بأبي الغيث. فيلسوف متصوف فارسي كتب بالعربية. ويعد من كبار المتعبدين والزهاد، وتارة في زمر الملحدين. ولد بالطور ببيضاء فارس س ٤٤ هـ . ونشأ تربى بواسط. تتلمذ على التستري والمكي والجنيد ثم انفصل عنهم ونبذ حياة العزلة وراح يبشر بالتصوف في خراسان والأهواز والهند وتركستان. ظهر أمره في عا ٩٩' هـ فاتبع بعض الناس طريقته في التوحيد والايمان. كان يقول بحلول الذات الالهية فيه، وكثرت الوشايات به الى الخ يفة العباسي المقتدر، حوكم مرتين وحكم عليه بالسجن ثم الصلب. وتوفي في ذي القعدة س ٠٩ هـ ٢٢، م .{ينظر: الأعلام ، خير الدين الزركلي: ٢ ٦٠' ، ط ٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ٩٧٩ م - وتاريخ فلاسفة الإسلام ، محمد لطفي جمعه ٢٨٢ ، سنة طبع الكتاب ٩٢٧ م - وتا يخ الفلسفة العربية ، حنا الفاخوري وخليل الجر: ١٠٢ ، ط ٢ ، دار الجيل ، بيروت ٩٨٢ م }.

و يقول أيضا:

عجبــت منــك ومني يا منيــة المتمني

أدنيتــني منــك حتى ظننــت أنــك أني

وغبت في الوجد حتى أفنيتني بك عني

ولم تكن فكرة الحلاج هذه مقبولة لدى عموم الفقهــاء فعارضــوها وانضم إليهم عامة الصوفية وأنكروها.) ويؤكد هذه الحقيقة - معارضة فقهاء وأكثر المتصوفة لفكرة الحلاج - بشكل أدق البارون كارا دو فو إذ يقول: (ان التصوف الإسلامي السني لا يقول بوحدة الوجود) .

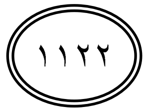
وقد تجلى هذا الأمر بوضوح في موقف الغزالي) إذ أنه يقرر نظرة معتدلة عن التصوف السني الذي يبعد مذهب وحدة الوجود.)

) ينظر: تاريخ الفلسفة الاسلامية ، هنري كوربان ص ٢٩٦

) ينظر: الغزالي ، تأليف البارون كارا دو فو ، ترجمة : عادل زعيتــر ١٥٩ . ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ٩٨٤ م.

) الغزالي ٤٥٠ - ٥٠٥ هــ ١٠٥٨ ١١١ م) محمد بن محمد بن محمــد الغــزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الاسلام: فيلسوف، متصوف، له نحو مئتي مصنف. مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس بخراسان) رحل الى نيسلبور، ثم بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر. نسبته الى صناعة الغزل. من أشهر كتبه (إحياء علوم الــدين وتهافــت الفلاسفة والاقتصاد في الاعتقاد ومدارج القدس في أحوال النفس) وكتــب أخــرى كثيرة.{ينظر: الأعلام ٧ ٢ ٣ }.

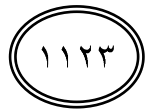
) المصدر السابق ص ١٨٤



ومن لذين يعتقد أنهم وافقوا الحلاج في قوله بوحدة الوجود محيي الدين بن عربي) (سنة ٦٠ هـ ٣٨ هـ) وهو يرى أن كل انسان كامل يجب أن يكون صوفيا، اذ بالتصوف وحده يستطيع الوصول الى الاتحاد بالله. وأن الإنسان الكامل أكمل المخلوقات ولذا لم يكن بد من احترامه والحرص على سلامته، ان من يحترم الإنسان الكامل احترم الله. وإذا زال الإنسان الكامل زال الوجود كما يزول المعلول اذا تلاشت علته.)

) محيي الدين بن العربي: هو الشيخ محيي الدين أبو بكر الطائي الحاتمي الأندلسي المروف بابن عربي ولد في رمضان (سـ ٦٠ هـ) بمرسية بالأندلس، نما وترعرع في طلب العلم في وطنه ثم سافر الى مصر ودمشق وبغداد ومكة وأقام في بلاد الرومفي طلب العلم والرجال والسياحة.أحبه ملك الروم وأكرمه لما عرف عنه من علم وقوة شخصية. كان ظاهري المذهب في العبادات باطي النظر في الاعتقادات.برع في التصوف وذاع صيته وكثرت مصنفاته. من أشهر كتبه (الفتوحات المكية) وقد ذكر له المترجم ٢٥ كتابا.توفي في (الثامن والعشرين من ربيع الآخر سن ٣٨ هـ) ودفن بمدفن بني الزكي في قاسيون بدمشق. {ينظر:تاريخ فلاسفة الإسلام ص ٢٩١ - ٩٢ }.

) ينظر: الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام ، د.ناجي التكريتي ، ٣١ ٣٢ ط ١ ، دار الأندلس ، بغداد ٩٧٩ م



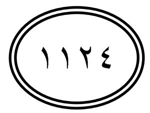
ووافقه أيضا جلال الدين الرومي) كما يرى كارا دو فو، اذ يعتقد بأنه وجد في أقواله هندية حقيقية أكثر، وكذلك وحدة الوجود. ويذكر أن لجلال الدين ميل كبير الى الطبيعة، وقد تعود أن يرى فيها تجليا الهيا يحمل على الاعتقاد بأنه يرى الله فيها، ثم انه كلف بمفهوم النفس الكلية، أي بمفهوم"نفس الجميع". ')

ومن العلماء الذين ينفون اتهام هؤلاء المتصوفة بتبني وحدة الوجود شيخ الأزهر سابقا الدكتور عبد لحليم محمود ويرى: أنه ما كان لمؤمن، أن يقول بوحدة الوجود، وما كان للصوفية أن يقولوا بها. ويرى أيضا: أن قضية الحلاج مرجعها سياسي لا عقائدي، كونه كان محبا لآل البيت الطامحين آنذاك في تولي أمر المسلمين، والحلاج كان داعيا قـ - وي الحجة ، مركزا للجاذبية، يلتف الذ س حوله أينما حل، وما كان بنو العباس يطمئنون الى شخصية بهذه المواصفات، فالأجدر هو القضاء عليه والخلاص من نشاطه المريب، فكانت محاكمته ومقتله. ')

) ولد جلال الدين الرومي في بلخ سن ٦٠٤ هـ، وتوفي في قونية سن ٦٧٢ هـ، ولا تزال ذريته وطريقته تشغلان مركزا مهما في الاسلام. {ينظر: الغزالي البـ ارون كارا دو فو ٥٠' ترجمة : عادل زعيتر . ط ٢ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ٩٨٤ م}.

') ينظر: الغزالي ٢٥٠ .

') ينظر: المنقذ من الضلال ، الشيخ عبد الحليم محمود ٢٧٦ . ط ٢ ، دار الكتاب اللبناني : بيروت ٩٨٥ م .



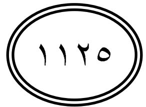
وبراءة الحلاج تمتد لتشمل من رموا بنفس التهمة وهم ابن عربي وابن الفارض، فقد ورد عن الشافعي رحمه الله أنه قال عن خصوم ابن عربي: "ان حكمهم حكم ناموسة، نفخت على جبل تريد ازالته من مكانه، وتذهب الريح بأمم من الناموس، وتبقى الجبال شوامخ راسيات". وللشعراني رد فيه دفاع عن الصوفية عموما وعن ابن عربي خصوصا اذ يقول: "ولعمري ان عباد الأوثان لم يجرؤوا على أن يجعلوا آلهتم عين الله، فكيف يظن بأولياء الله أن يدعوا الاتحاد بالحق سبحانه، هذا محال في حقهم، رضوان الله عليهم".)

والذي أراه أن ما ذهب اليه شيخ الأزهر من أن مقتل الحلاج كان سياسيا هو صحيح ، ويؤيده طبيعة نشاط الحلاج الذي يشم منه رائحة السياسة، ولكن ما صرح به حلاج من أقوال تغنى بها شعرا، وهذه الأقوال في أمور العقيدة ظاهرها مفض الى تبني وحدة الوجود والقول بها، وهذا الكلام يؤاخذ عليه كونه لا يرتكز الى سند شرعي، وهو يمس عقيدة التوحيد في جوهرها، ورحم الله امرءا جب الغيبة عن نفسه، فكيف وقد عرض نفسه للتهمة المؤدية ى الهلاك.

وللخلاص في الهندوسية ثلاثة طرق [٢] وهي:

) المصدر السابق ٢٧٧ .

[٢]) ينظر: الأديان الحية نشوؤها وتطورها : أديب صعب ٥ ٣٦ . ط ٢ ، دار النها : بيروت ٩٩٥ م .



. طريق العمل (karma) ويقوم على مجموعة قواعد منهجية لتأدية الواجبات الاجتماعية والطقوس الدينية، وهي محددة في البراهمانيات، ومن أهمها شرعة مانو.

٢. طريق المعرفة (nana) وأهميتها نابعة من النظر الى البؤس والبشر البشريين على أنهما نتيجة الجهل، وخطأ الإنسان هو إصراره على النظر الى نفسه كما لو كان كائنا حقيقيا مستقلا وقائما بذاته.

٣. طريق القداسة أو التكريس (bhakti) وتبقى هذه أهم طرق الخلاص، ويرون أنها يسيرة للإنسان العادي، بعكس الطريقين السابقين، لأنهما يتط بان جهدا شاقا وملكة فكرية ثاقبة.

وأرى أن في هذا التوصيف المثالي للإنسان في الهندوسية، ومهمته في الحياة يبعده كثيرا عن طبيعته التي جبل عليها، وأجد أن فيه أيضا تعطيل لمشروع الإنسان في حياته. فالعناية المطلقة بالروح ومحاربة الجسد فيه تعسف وظلم وقهر مغالى فيه، فالطريق الأسلم هو الموازنة فيما بين العنصرين من غير إفراط ولا تفريط. وإذا سلمنا بصحة منهج الهندوس فاننا سنحكم على البشرية بالخمود والخمول وترك الحركة والنشاط والعمل مما يؤدي الى اختلال الحياة واضطرابها وشيوع الفقر والجوع، والأسلم هو تنشيط حركة المجت ع مع مراعاة منظومة المثل والقيم النبيلة، أي توأمتها مع جهد الإنسان ونشاطه.

ويبدو أن هناك إشكالية في فلسفة الهندوس للخلاص، وهي أن الانطلاق يتحقق من خلال الاندماج ببراهما، كمما تندمج قطرة من الماء

في المحيط العظيم، ويرون أن هذا الاندماج لا يكتسب بالأعمال الصالحة لأن جزاءها يحصل من تكرار المولد كالأعمال الشريرة تمام .

فلا أدري إذن ما قيمة العمل الصالح إذا لم يكن موصلا النفس الى ما تصبو إليه من سعادة ونعمة ! أليس في العمل الصالح ثواب يستحقه فاعله ورضى يجده في نفسه؟ وأجد أن سبب هذا الإشكال هو في النذرة التجريدية للروح عندهم، والمثالية المطلقة التي وسمت بها أفكارهم وعقائدهم.

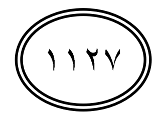
المطلب الثالث

منهج الخلاص في الجينية ( ) (Jainism)

الجينية : وهي أحد أديان الهنود وتمثل امتدادا للهندوسية إلا أنها طورت كثيرا من أفكارها وعقائدها، ومن ذلك أنها طورت (الانطلاق) ع د

) ينظر:المصدر السابق ٦٤

) الجينية:ظهرت على يد معلمها (مهاويرا Mahavera) بمعنى (البطل العظيم) المولود سنة ٥٩٩ ق.م ينحدر من أسرة من طبقة الكاشتيريا التي تسيطر ع ى أمور السياسة والحرب. نشأ في بيت مجيد وسط الرخاء وطيب العيش. وكانت أسرته مقصدا لوفود من الرهبان وجماعات النساك. تزوج وأنجب لكنه كان ميالا الى الرهبنة. واستطاع بعد وفاة والده أن يتحرر من قيود الأسرة والملك، فبدأ رحلة الزهد والجوع والتقشف. حصل كما يعتقد أ اعه على الدرجة الخامسة من العلم وهي (العلم المطلق) ثم فاز بدرجة المرشد (Tirthankara) وبدأ الدعوة لعقيدته. ثم حان أجله في عام ٢٧ ق.م في خلوة وحيدا، وترك وراءه ترثا ضخما من الوصايا والحكم والفلسفات. {ينظر:مقارنة الأديان ل : الجينية ، والمدخل الى دراسة الا ديان والمذاهب ص ٠/ - ١ }



الهندوس وقالت ـــ (النجاة alvation) بديلا عنه. وهي تـــرى أن (الكارما) كائن مادي مسيطر على الروح محيط بها، كمـــا تحـــيط الشرنقة بالفراشة، وتقول النصوص الجينية المقدســـة: كمـــا تتحـــد الحرارة بالحديد، وكما يمتزج الماء باللبن، كـــذلك يتحـــد الكارمـــا بالروح، وبذلك تصير الروح أسيرة في يـــد الكارمـــا. ولا ســـبيل لتحرير الروح من هذا المأزق الا بالتقشف الشديد والحرمان التـــام من كل الملذات، حتى تتحرر الروح من خلال تكرار المولـــد ومـــا يرافقه من تطهر نفسي وانتهاء لرغباته، عند ذلك تقف دائرة عملـــه ومعها حياته المادية فيبقى روحا خالدا في نعيم خالد. ()

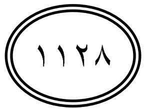
وطريق الخلاص في رأي الجانتيي، هي توبة تقشـــفية، واصـــطناع " أهمسا " موفورة كاملة، و "أهمسا" معناها الامتناع عن ايذاء أي كـــائن حي، ولزاما على كل متقشف منهم أن يلتزم بالعهود الخمسة: ألا يقتـــل كائنا حيا، وألا يكذب، وألا يأخذ ما لم يعطه، وان يصون عفته، وأن ينبذ استمتاعه بالأشياء الخارجية كلها. ()

وطريق الوصول الى النجاة يتطلب من الجيني أن يتبع ثلاثة سبل في حياته يسمونها (يواقيت) وترتيبها كما يلي:

- **الياقوتة الأولى** : وهي الاعتقاد الصحيح، فعمل الـــذنوب والرغبـــات واتباع الشهوات يضعف الاعتقاد الصحيح.

() ينظر: مقارنة الأديان : ١٢ - ١١٣ .

() قصة الحضارة ٦٠ .



- **الياقوتة الثاني** : وهي العلم الصحيح بما في الكون، فلا يكون هنالك علم صحيح بأمور الحياة ما لم يكن للمرء اعتقاد صحيح في دينه.
- **الياقوتة الثالث** : وهي الخلق الصحيح في التخلي عن السيئات، والابتعاد عن الاعتداء على المخلوقات، والاستقامة، والتواضع، والنظافة، والايثار ، واعتزال النساء.. الخ.)

وقد رسم معلم الجينية (مهاويرا) طريق النجاة والخلاص بجملة من الشروط التي لا بد أن يسلكها من يبتغي السعادة المطلقة، ويمكننا استخلاص أهم هذه الشروط:

. أن طريق النجاة شاق وعسير وليس متاحا الا لخواص الرهبان.

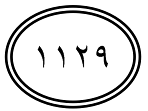
. يجب على الناسك أن لا يوقع أذى بانسان أو حيوان.

. على الناسك ادراك احترام الحياة باعتباره أقدس ما اعتنى به مهاويرا.

. يتحتم على طالب النجاة قهر جميع غرائزه وعواطفه وحاجاته ورغباته.

وعنده أن الناسك الذي يلتزم تلك الشروط ويتمسك بها يفقد الاحساس بالحب أو الكره، السرور أو الحزن، الخوف أو الحياء، وهذا ما يوصله الى حالة من الجمود والخمود تفقده الاحساس بما حوله، ومن

) ينظر: الأديان – دراسة تاريخية مقارنة – ، د. رشدي عليان و د.سعدون السامول
٩٥ ، إصدار : جامعة صدام للعلوم الإسلامية / بغداد .



دلائل ذلك أنه يتعرى فلا يحس بحياء وينتف شعره فلا يتألم، لأنه لو أحس لكان معنى ذلك أنه لا زال متمسكا بالحياة بعيدا عن النجاة. (١)

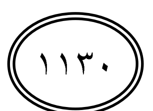
وأقول أن مهاويرا قد حصر دائرة الخلاص والنجاة بخواص الرهبان، وهذا يعني أن عموم الرهبان وبقية الناس هم خارج هذه الدائرة، وفي هذا انتقاء وترسيخ لمبدأ الطبقية التي حاول هو أن يتحرر منها، وأجد أن في هذا الاصطفاء هو تعزيز لسلطة البراهمة وامتيازهم على بقية الطبقات. إضافة الى أن منهج ا قهر المطلق للجسد، وتعذيبه بضروب من التقشف والرياضة، فيه مجانبة وتعسف لطبيعة الإنسان وتكوينه، فالتهذيب مطلوب وترسيخ القيم أمر نبيل، لكن لا يفضي الأمر الى أن يصبح الإنسان متهما لا لشيء إلا لكونه إنسان، أعتقد أنها إشكالية يصعب تخطيها وفق هذه المفاهيم. وتوحي ـ ملة هذه الوصايا للوصول الى الفناء من أجل الفناء ليس إلا.

وإذا نظرنا الى الفناء عند الصوفيين نجد أنه غاية ما يصبون إليه، ويرون أنه نتيجة الحب المفرط. فابن عربي يصفه بقوله: "وألطف ما في الحب ما وجدته، وهو أن تجد عشقا مفرطا وشوقا مقلقا... ثم ذهول وذهاب وفناء، ثم تجلي وفيض ولذة لا توصف". وفي هذه الحالة يعود المحب فلا يرى سوى المحبوب، وتغيب عن حواسه الدنيا بما فيها. (٢)

---

(١) ينظر: أديان العالم: د.هوستن سميث، ترجمة: سعد رستم ١٨٤ - ١٨٥. ط ١، دار الجسور الثقافية. حلب ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

(٢) ينظر: تاريخ الفلسفة العربية ٦٧ ٣٦٨.

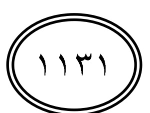


وقد وضع الجينيون سبعة أصول رئيسية لتطهير الروح . وتعتبر من أمهات المباديء الجينية وقد أوردها صاحب المدخل الى دراسة الأديان والمذاهب ، وكما يلي:

١. أخذ العقود والمواثيق بوجوب تمسك المريد بالخلق الحميد والإقلاع عن الخلق السيء.
٢. التقوى وهي المحافظة على الورع والاحتياط في القول والعمل وفي جميع الحركات والسكنات. وتجنب الأذى والضرر لأي كائن حي.
٣. التقليل من الحركات البدنية والكلام ومن التفكير في الأمور الدنيوية الجسمانية.
٤. التحلي بالفضائل ووسائل الكلمات العشر وهي:
العفو - الصدق - الاستقامة - التواضع - النظافة - ضبط النفس - التقشف الظاهري والباطني - الزهد - اعتزال النساء - الإيثار .
٥. التفكير في الحقائق الكونية الأساسية عن الكون و النفس.
٦. السيطرة على متاعب الحياة وهمومها التي تنشأ عنها الأعراض الجسمانية أو المادية كمشاعر الجوع والعطش والبرودة والحرارة.
٧. القناعة الكاملة والطمأنينة والخلق الحسن والطهارة الظاهرية والباطنية.

وأقف عند هذه المنظومة القيمية والسلوكية فأجد أن فيها مورا ومثلا سامية نبيلة ولكنها خلطت أو لنقل أنها مزجت بقضايا أخرى أُقحمت

) ينظر: المدخل الى دراسة الأديان والمذاهب ٧١ .



الإنسان فيما لا طاقة به. فالتمسك بالخلق الحميد والتقوى وما يتطلبه من اعتقاد وعمل أمور لا غبار عليها، ومنظومة الفضائل التي وردت عدا اعتزال النساء والمبالغة في التقشف، قيم أخلاقية سامية، والقناعة ونقاء السريرة وحسن المعاملة أمور لا يختلف عليها عاقلان. أما الخمود وتقليل الحركة والانزواء من أجل التفكير ففيه تعطيل لدور الإنسان ومهامه الأساسية في إقامة دعائم الحياة. وأما السيطرة على المتاعب كما وردت أرى أنها تدور في مجال خلق المشكلة ومحاولة حتوائها، وهي تخلق اعباءا ومشاكل نفسية وبدنية لا طاقة للإنسان في مواجهتها والتعاطي معها. وأسأل: لماذا يوضع الإنسان في موضع الاتهام وعليه إثبات براءته ونقاءه؟!

ويظهر الغلو في التقشف بأوضح صوره من خلال رأيهم بأن اللذة الحسية خطيئة دائما، وعلى الجانتي أن ستغنى استغناءا تاما عن الأشياء، فالزراعة عندهم حرام لأنها تمزق التربة وتسحق الحشرات والديدان، والجانتي الصالح يرفض أكل العسل لأنه غذاء النحل، ويصفي الماء قبل شرابه خشية أن يقتل ما عساه أن يكون كامنا فيه من كائنات، ويحيط مصباحه بستار حتى يقي الحشرات لذع ال ار، ولا يجوز لهم ذبح حيوان أو التضحية به.)

) قصة الحضارة ١٠ - ٦١ .



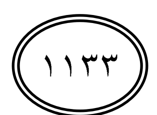
فالجينيون يحافظون على كل شيء ويحترمون كل شيء الا حياتهم، فهم يسعون بل ويجهدون أنفسهم للقضاء عليها بالجوع أو حتى بالانتحار لأن فيه انتصار الروح وطلبا للخلاص كما يعتقدون!

المطلب الرابع

منهج الخلاص في البوذية [1] (Buddism)

البوذية : سفيرة الفكر الديني الهندوسي، كونها لم تستطع أن تتكيف مع بعض عقائد الهندوس، وخصوصا التقسيم الطبقي، فاضطرت الى مغادرة أرضها والبحث عن بيئة جديدة تلائمها، فوجدت في الصين واحتها المناسبة. وقد طورت البوذية بعض عقائد الهنود فأوجدت لـ ا نمطا جديدا يوائم تطلعها ورؤاها، ومن ذلك أنها طورت الانطلاق عند الهندوس والنجاة عند الجينية لتقدم ما تراه أكثر

[1] البوذية: في حياة مؤسسها نظام أخلاقي واتجاه تربوي، ثم صارت مذهبا فكريا ومباحث عقلية، والبوذية القديمة صبغتها أخلاقية. وميزتها سذاجة المنطق واثارة العاطفة وطابعها الحض على الخضوع لقوانين النظام والاهتمام بهدي شارعها (بوذا) ومريدوه وأتباعه الذين لازموه. والبوذية الجديدة هي تعاليم بوذا مختلطة بآراء دقيقة في الكون وأفكار مجردة عن الحياة. مبنية على نظريات فلسفية وقياسات عقلية ويغلب عليها طابع الفلسفة. { أنظر: المدخل الى دراسة الأديان والمذاهب ص ٤ }.



ملائمة وأدق توصيفا إلا وهي (النيرفانا Nirvana) وتعني عندهم من حيث الاشتقاق اللغوي: الانطفـاء والخمـود. ومعناهـا الحرفـي: الانقراض والانعدام الكامل. ويوضحها الباحثون على أنها تعني: أن شقاء الحياة وعناءها وضجرها تنبعث مـن رغبـات الـنفس، وأن الإنسان يمكنه أن يكون سيد رغباته، لا عبدا لها، وأن في مقـدوره الإفلات من هذه الرغبات بقوة الثقافة الروحية ومحبة الآخرين.

وقد تفادى بوذا[1] كل وصف ايجابي لتلك الحالة التي لـيس لهـا أي ضابط معين، مع إصراره على أنها (غير قابلة للوصف، غيـر قابلـة للتصديق، غير قابلة للإدراك ، غير قابلة للحديث عنها) وغاية ما صـرح به عن وصفها أن قال: (نعمة يا أصدقائي!نعم نعمة، هي النيرفانا).[2]

---

[1]) بوذا: ويدعى (سدهارتا Siddharta) المولود سنة ٥٦٠ ق.م والمتوفى سنة ٤٨٣ ق.م لأسرة نبيلة تسكن كبيلاواثور في الناحية الشرقية من الهند، شمال نهر الكنج المقدس. ماتت أمه في الأسبوع الأول من ولادته. شب في ظل نعيم عظيم من الغنى والترف. زوجه والده في باكورة شبابه، الا أن كل ذلك لم يجتذبه بل عاش مفكرا متحسسـا ألم ومعاناة المعدمين من حوله، جذبه الألم والشر في الحياة أكثر مما جذبـه النعـيم والسرور. فلجأ الى العزلة والتفكير حتى أحس يوما بأنه قد وجد الحقيقة ونالها في ظل الشجرة المقدسة التي كان يجلس تحتها. نشر دعوته بين الناس واليه نسـبت ديانتـه، فسميت باسمه.{ينظر: مقارنة الأديان ك ٤ فصل البوذية}.

[2]) ينظر: المصدر السابق ص ١٨٤ - ١٨٥ .



كانت دعوة بوذا تركز على تطهير النفس والعمل على ازالة الآلام. وجوهر فلسفته ينبع من قوله المأثور (من الخير يجب أن يأتي الخير ومن الشر يجب أن يأتي الشر). وقد رسم بوذا لأتباعه منهج الخلاص الروحي المفضي الى النيرفانا غايتهم وأملهم المنشود. وهنا اختلف بوذا بل وفارق الهندوسية عندما كشف عن ثغرة عقائدية عظيمة لا وهي إنكاره لوجود آلهة، فكما أسلفنا أن الهندوسية تسعى من خلال الانطلاق للاتحاد ببراهما، أما البوذية فترى أنه ليس في النيرفانا اندماج أو اتحاد باله، ولكن بوصول الفرد الى أعلى درجات الصفاء الروحي بتطهير نفسه والقضاء على جميع الرغائب وفناء الأغراض الشخصية وانقاذ نفسه من ربقة الكارما ومن تكرار المولد وذلك بالتوقف عن فعل الشر.)

وقد وسمت النيرفانا الفكر البوذي بحيث أصبحت معلمه الأعظم، والعنوان الذي تمتاز به عن بقية العقائد الأخرى. فقد تناولها (بوذا) وأتباعه من بعده على مر الزمن بعناية فائقة، وأفردوا لها ، جالا واسعا لم تحظ به بقية عقائدهم، مما أخضعها لمراحل من التطور في المفهوم والمدلول. فعند بوذا خضعت لتحول كبير، فبعد أن كانت تعني أول الأمر:أنها اندماج في الله والفناء فيه، إلا أنه أنكر لاحقا وجود الإلـ ، مما أثر على مفهوم النيرفانا عنده. واستنتاجا من أقو ل بوذا حصل تداخل بين مفهوم الإلوهية والنيرفانا عنده، فهو يقول: (هناك أيها الرهبان! لا مولود ولا صائر ولا مخلوق ولا متشكل... ولو لم يكن كذلك لما كان هناك

) ينظر: الأديان دراسة تاريخية مقارنة – الديانات القديمة - (بتصرف) ١٧ - ١٨



تحرر، ولا خلاص من التشكل، ولا تحرر من المصنوع، ولا من المركب) فانه بدا وكأنه يشير الى ذلك المفهوم للإلهية بالضبط، نتيجة لإعجابه بالمتشابهات بين الإلوهية والنيرفانا.

وقد جمع (أدوارد كونز Edward Conze) نصوصا من البوذية تعرض هذه الإشكاليه : " النيرفانا دائمة، أبدية، ثابتة، لا تفنى، لا تتحرك، لا زمن لها، بلا موت، غير مولودة، غير متحولة، وغير متغيرة، الا يرفانا قوة، ونعمة، وسعادة، والملاذ الآمن، والملجأ، وموضع الأمان المنيع، انها الحق الحقيقي، والحقيقة الأسمى والأعلى، انها الخير المحض، والهدف الأسمى، والاكتمال الأوحد لحياتنا، انها السلام الأزلي، الباطني، غير القابل للاستيعاب". ويمكننا أن نستنتج مع كونز: أن النيرفانا ليست الله المعرف كالشخص الخالق، ولكنها تقف قريبا جدا من مفهوم الله بمعنى الإلوهية لدرجة جعلتنا نضمن ذلك المعنى لها. ( )

وأرى أن سبب ذلك الإشكال عائد الى فكرة بوذا عن الإله وإقراره به ابتداءا، فوصف النيرفانا على أنها الاندماج في الله والفناء فيه، ولكن أفكار بوذا تغيرت لاحقا بالنسبة للتفكير في الله، فقد تخلى عن القول بأن هناك إله ، بل أنكر وجود الإله ، وبناءا على هذا الإنكار لم تعد (النيرفانا) الاندماج في الله، بل اتخذت لها معنى جديدا أو ربما معنيين متلاحقين هما:

( ) ينظر: أديان العالم ١٨٦ .



. وصول الفرد الى أعلى درجات الصفاء الروحي بتطهير نفسه، والقضاء على جميع رغباته المادية، أو بعبارة أخرى: فناء الأغراض الشخصية الباطلة التي تجعل الحياة بحكم الضرورة دنيئة أو ذليلة مروعة، ويصبح المقياس هو:" كل من شاء منا أن ينقذ حياته عليه أن يخسره".

' . إنقاذ الإنسان نفسه من ربقة " الكارما " و، ن " تكرار المولد " بالقضاء على الرغبات والتوقف عن عمل الخير والشر.

وبناءا على المعنى الأول يصل الإنسان الى "النيرفانا" وهو حي، وبناءا على المعنى الثاني ترتبط النيرفانا بالموت وبالتخلص من هذه الحياة على أن لا يعود إليه .)

ان سعي البوذية الى الفناء قد نجده لدى أبو العلاء المعري، ولهذا الأمر اعتبار لديه إذ جهر باحترام حياة الحيوان واستصوب إحراق جثث الموتى، وأدرك كلمة"الفناء" بالمعنى البوذي...وهو في هذه النقطة يلتقي بالخيام ') الذي قال: (أمران مهمان في عنعنات الإسلام

) ينظر: مقارنة الأديان : ' ١٥٥ .

') الخيام (المتوفى ١٥ هـ ١٢١ م) عمر بن إبراهيم الخيام النيسابوري، أبو الفتح، شاعر وفيلسوف فارسي، مستعرب من أهل نيسابور. كان عالما بالرياضيات والفلك واللغة والفقه والتاريخ، له شعر عربي وتصانيف عربية، وبلغت ذروة شهرته بمقطعاته الشعرية (الرباعيات) نظمها شعرا بالفارسية، وترجمت الى العربية واللاتينية والفرنسية

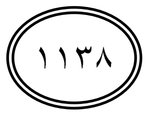
الظاهرة، أن لا تأكل من كل ما يؤكل، وأن تمتنع عن كل ذي حياة"، وهذا أيضا شعور هندي يلوح أنه يوحي الى الشاعر نفسه في رباعيته يشبه فيها الحياة بظلال يلقيها فانوس سحري.)

وكما أسلفت بأن بعض الأفكار البوذية قد تطورت في حياة بوذا وأصبح لها واقعا جديدا ومنها قضية الإلوهية "، وتطورت أفكار بوذا عموما على أيدي أتباعه من بعده، ومن مجالات التطور هذه "النيرفانا" ويمكننا أن نتلمس واقع ذلك التطور من خلال المدرستين الشهيرتين في الفكر البوذي وهما:

- التيرافادا ***Therravada*** : ومعناها "طريق الأسلاف" : وترى هذه الفرقة أن وصول البشر الى التحرر والانعتاق يتم بفضل جهدهم الشخصي، ودون أية مساعدة فوق طبيعية، ورأو أن "بوذا قديس ومعلم سام وملهم"، والوصول الى الخلاص يتطلب التزاما مستمرا ودائما ، وهو بشكل أساسي للرهبان والراهبات، وهذا نابع من منهج هذه الفرقة باعتبارها محافظة أصولية، ملتزمون بنصوص"شريعة بالي" القديمة.

والانكليزية والألمانية والايطالية والدانمركية وغيرها، وعرف قدره في أيامه، فقربه الملوك والرؤساء. {ينظر: الأعلام ، للزركلي ، ٣٨ }.

) ينظر: الغزالي ٢٣٩ .



– الماهاينا *Mahayana* : ومعناها " العبارة الكبيرة " : وترى أن القوى الإلهية وما تمنحه من نعمة تدعم تطلعات البشر في الوصول الى الخلاص، وقد رأوا أن "بوذا مخلصا" ، وأن طريق الخلاص ليس حكرا على الرهبان حيث يستطيع عامة الناس سلوكه. وهذه الفرقة متحررة في كافة الجوانب، ولذ ك نراهم أقل صرامة في تفسير قواعد السلوك.)

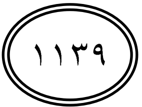
ونستطيع أن نقول بأن النيرفانا عند البوذية ليست هي الفناء عند الصوفية، لأن فكرة النيرفانا تبحث عن فناء الوجود للفناء نفسه، والتي تكون النيرفانا غاية، أي زوال الوجود الذي يبلغ بعناء بعد مجاوزة مئات الحيوات، أما ال ناء الصوفي فهو بحث عن البقاء، طلبا للسعادة الدائمة في الحياة وبعد الممات.)

أما القيود أو الموانع التي تحول دون بلوغ المرء النيرفانا فلم يغفل عنها الفكر البوذي، بل حددها بدقة ووضوح، وكما يلي:

. الوهم الخادع في خلود النفس.
. الشك في بوذا وتعاليمه.
. الاعتقاد في تأثير الطقوس والتقاليد الدينية.
. الشهوة.

) ينظر: أديان العالم ٩٥ ٢٠٠ .

) ينظر: الغزالي ٢٤٧ .



. الكراهية.

. الغرور.

. الرغبة في البقاء المادي.

. الكبرياء.

. الجهل.)

وفي الحقيقة أن جملة هذه القيود عدا ما يتعلق بالاعتقاد ببوذا وطقوس ديانته، فهي أمور محمودة ومراعاتها لازمة من قبل أي شخص يفهم رسالة الحياة وموقع الإنسان فيها بغض النظر عن انتمائه وخصوصية معتقده.

أما صورة المخلص في البوذية فهي ما تذكره قصة ولادة "سدهارتا" من أن العرافين أنبؤوا عن ولادته وبإجماعهم ، أن هذا المولود سيكون رجلا استثنائيا. إلا أن شيئا سيعترض حياته ويفسدها. فإذا بـ ي في العالم فانه سيوحد الهند، ويصبح فاتحها الكبير وملكا عالميا، لكنه اذا تخلى عن العالم فانه لن يصبح فاتحا للعالم بل مخلصا للعالم.)

وفكرة المخلص معروفة في الأديان السماوية، فاليهود يؤمنون بمجيء المسيح المنتظر، فلم يروا في عيسى بن مريم على أنه المسيح الموعود في أسفارهم وكتب أنبيائهم، والمسيحيون يقولون بعودة المسيح

) ينظر: الأديان – دراسة تاريخية مقارنة – ٩٩ .

) المصدر السابق ١٣٨ .

الى الأرض قبل قيام الساعة، ووافقهم عليه المسلمون مع اختلاف وجهات نظر الطرفين في التفاصيل، والمسلمون يؤمنون بظهور مهدي الزمان قبل قيام الساعة، وهو أحد علاماتها. والجميع يرون أن المخلص الموعود سيأتي بعد أن يعم الظلم، ويشيع الفساد، وتستباح الحرمات، ويكثر القتل بين الناس. ودوره هو إقامة العدل، وإزاحة الظلم ، وبمجيئه يسود الأمن والسلام، وتفيض الأرض بركة، ويعم الرخاء.

المبحث الثاني

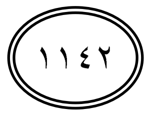
التصوف الإسلامي بين الأصالة والتأثر

المطلب الأول

مفهوم التصوف الإسلامي وتطوره

معلوم أن الثقافة الهندية كانت سابقة للثقافة الإسلامية زمنيا، وترجع جذور الديانة البرهمية الى أكثر من خمسة عشر قرنا ق. م. والتصوف في الإسلام ليس دينا ولكنه طريقا ومنهجا يراد من خلاله الوصول الى سعادة أبعد مما في هذا العالم. وغايه اللذة باعتبارها نتيجة يحصل عليها المتصوف دون أن يسعى وراءها لأنها لم تكن في وقت من الأوقات غايته المنشودة، وليس له سوى الاتحاد بالله اتحادا تتلاشى فيه جميع الغايات الشخصية المحدودة.)

) ينظر: تاريخ الفلسفة العربية ٢٨٤ - ٢٨٥ .



ومفهوم التصوف الإسلامي وتعريفه لدى بعض من متقدمي رجالاته كما يلي :

قال معروف الكرخي : التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق.

وقال السري السقطي : التصوف اسم لثلاث معاني وهو الذي لا يطفيء نوره معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقض عليه ظاهر الكتاب أو السنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أسرار مد رم الله.

(ينظر: الفلسفة الأخلاقية لأفلاطون عند مفكري الإسلام ، للاستزادة من تعاريف أعلام التصوف ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(الكرخي (المتوفى ٠٠ هـ ١٥،م) معروف بن فيروز الكرخي. أبو محفوظ: أحد أعلام الزهاد المتصوفين. ولد على غير دين الإسلام ثم أسلم. وكان من موالي الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم. ولد في كرخ بغداد ونشأ وتوفي بها. وكان مبدؤه العمل ، وهو في عرفه طاعة الله وخدمة المسلمين والنصيحة لهم. اشتهر بالصلاح وقصده الناس للتبرك به حتى كان الإمام أحمد بن حنبل في جملة من يختلف إليه ، ولابن الجوزي كتاب في "أخباره وآدابه" {ينظر: الأعلام ، للزركلي ٢٦٩ ، وتاريخ فلاسفة الإسلام ٨٢ }.

(أبو الحسن سري بن المفلس السقطي كان تلميذا للكرخي وخال الجنيد وأستاذه. من كبار المتصوفة، بغدادي المولد والنشأة. أول من تكلم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية، وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته. توفي سنة ٥٣ هـ، وكان يقول بنظرية أستاذه في "الطمأنينة". {ينظر: الأعلام ، للزركلي ١٢ وتاريخ فلاسفة الإسلام ٨٢ }.

وقال الجنيد : التصوف تصوف القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتي ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة دعاوى النفسانية، ومنازلة صفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، والعلم على ما هو خير، والنصح لجميع الأمة والإخلاص في مراعاة لحقيقة، وأتباع النبي ﷺ .

فوجهة نظر الإسلام واضحة في تحقيق التوازن بين الدنيا والآخرة في حياة المسلم استنادا الى منهج القرآن، قال تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، القصص: آية ٧٧ }. ولكن عند تعارض الأمرين

) أبو القاسم د: الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزار، صوفي من العلماء بالدين. مولده ومنشأه ووفاته في بغداد، وأصله من نهاوند. وكان يعرف بالقواريري نسبة لعمل القوارير. أول من تكلم بالتوحيد في بغداد. (توفي سنة ٩٨ هـ ١١٠ م). لقبه المتأخرون "بسيد الطائفة" و"شيخ المشايخ" و"طاووس الفقراء" ولعله أول من قال بالفناء في الله وجعل منه عقيدة صوفية. ويعتبر مع المحاسبي أكثر المتصوفين اعتدالا وأقربهم الى السنة. {ينظر: الأعلام ، للزركلي ' ١٤١ ، وتاريخ الفلسفة الإسلامية ' ١١ }.

– الدنيا والآخرة – فلا مجال للتردد في تقديم المصلحة الباقية على المصلحة الفانية.)

وأما معنى التصوف فقد أوردته سابقا في الهامش، وأرى أن الرأي الأصوب في التسمية هو ما ذهب إليه كثير من العلماء المعاصرين، منهم الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور زكي مبارك والمستشرق) مرجليوث، وهؤلاء يرون: أن لفظة "التصوف" نسبة الى الصوف، وكما يقال: تقمص إذا لبس القميص، كذلك يقال تصوف إذا لبس الصوف.)

فمن هذه المفاهيم تبرز خصوصيات التصوف الإسلامي من حيث استمداده من الشريعة منهجا، وتهذيب النفس وتطويعها بما يوافق الكتاب والسنة، ويبرز فيها علاقة الصوفي الايجابية بالمجتمع من خلال النصح والإرشاد والإخلاص ، واعتزاله لهم فيما يملكون لا يعني مقاطعتهم، وإنما يكون ناقلا لهم أحاسيسه النفسية وخبرته فيما يلقاه من فيض ونعيم

) ينظر: التفكير الفلسفي الإسلامي ، د.سليمان دنيا ٣٢٨ ، ط ١ ، مكتبة الخانجي بمصر ٣٨٧ هـ - ٩٦٧ م.

) المستشرق اسم الفاعل من "استشرق"، و الاستشراق مصدر الفعل "استشرق" والمعنى: طلب الشرق، والمستشرق : مصطله يتناول مجموعة من الناس وضعوا الشرق هدفا لهم في دراسة أحواله وتاريخه، ومعتقدات أهله. {ينظر: الحركة الاستشراقية د.رشيد العبيدي ١٠ - ١١ ، مطبعة أنوار دجله ، بغداد ٤٢٤ هـ - ٠٠٣ م}.

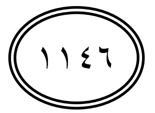
) ينظر: المنقذ من الضلال ١٥٧ .

غير مفض الى بوح بأسرار، ومن ذلك قول أحدهم: نحن في لــذة لــو علمها الملوك لقاتلونا عليها.

وقد وجد المتصوفة أنهم بحاجة الى تجاوز حدود الزهد في مسلكهم، باعتباره سلوكا عمليا م يدا بأحكام الشريعة الإسلامية ، ومنضبط بميــزان الإسلا ، فعلماء أصول الدين ، الذين كان همهــم المعرفــة لا العمــل، المعرفة بأصول الإسلام خالية من الشكوك والأوهــام، مؤيــدة بالحجــة والبرهان، دفع هؤلاء رجال التصوف الى اقتحام هذا النوع مــن العلــم، وأغراهم هذا الأمر وجذبهم لى ساحته، وفعلا كان لهم دور فيه له سمته الخاصة وعلامته الفارقة المرتكزة على منهج التصوف العملي، لا مــن منهج أصول الدين النظري.)

وهكذا يتعايش التصوف الإسلامي وتتفتح آفاقه تبعا لما تمر به الأمة الإسلامية من تطور فكري مطرد نتيجة لوجود عوامل التطور وبواعثه ، ومنها انفتاح المسلمين على علوم الأمم الأخرى وخصوصا بعد حركــة الترجمة في العصر العباسي. فالأمة الإسلامية امتدت رقعتها واسعة مما فتح المجال لتلاقح الأفكار والثقافات وتبادل الخبرات والعلوم، وانني لأجد أن هذا الأمر من خصائص الأمة الحية التي يكون دورها ايجابيــا فـ ي تبادل الثقافة والمعرفة فيما هو ايجابي انطلاقا من منهج الإسلام في الحث على العلم والتدبر والتفكر.

) التفكير الفلسفي الإسلامي ٣٢٢ - ٣٣٣ .



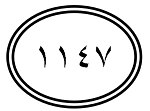
ويرى العلماء أن من شواهد هذا التطور بروز نظريات صوفية شبيهة بالنظريات الفلسفية ومنها: نظرية الكشف المستمدة من القرآن الكريم [1] والسنة النبوية، وهذه النذرية قريبة الشبه بنظرية اتصال العقل المستفاد بالعقل الفعال. ولم يقف الأمر عند هذا الحد في التنظير، بل تجاوزه الى إثبات تلك النظريات وتبريرها عقليا، وهنا نجد الإلهام والنظر، والكشف والعقل، يعملان معا لتحقيق مهمة واحدة. وهذا ما أدى بعدد من المتصوفة الى تبني ظريات مثل الاتحاد والحلول ووحدة الوجود، تلك النظريات التي لا تلتئم مع طبيعة الإسلام وفكره الأصيل. [2]

وأرى أنه لا بد من التمييز بين التصوف الإسلامي الأصيل المستند الى أصول الشرع وأحكامه، عن الأفكار الدخيلة التي وفدت الى فكر الأمة وتداخلت الى كيانها، و قصد من ذلك العقائد والممارسات التي لا تنسجم مع الثوابت الشرعية، كالقول بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود، وكذلك أغلب الأنماط السائدة اليوم من مدعي التصوف ممن يسمون (الدراويش) وكثيرا منهم يعفون أنفسهم من فروض الدين ويتحللون من أحكامه، بدعوى الرخصة لهم من أجداد م، وكم رأينا منهم من لا يصلي جماعة، أو لا يصوم رمضان، مدعين بأنهم معفوون ومتفرغون للطواف

---

[1]) مثل قوله تعالى: ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ - الكهف ٦٥ - و ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ - البقرة ٢٨٢ - وغير ذلك من لآثار النبوية الكثيرة.

[2]) المصدر السابق ٣٣ ٣٣٤ .

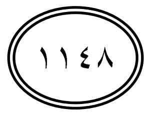


الى بلاد السند والهند لتفقد فقراء المسلمين، وأسأل: هل بعد هذا الافتراء من تلاعب واستهانة بقيمِ الإسلام وثوابته ؟! وهل يقاس هؤلاء المـدعين برجال التصوف الأوائل أمثال إبر هيم بن أدهـم) والسـري السـقطي والجنيد البغدادي ومعروف الكرخي ؟.

ويذكر الشيخ عبد الحليم محمود من ضـلالات هـؤلاء الأدعيـاء، ويرى أنهم ليس لهم فضل السبق في الباطل ، ان كان السبق في الباطـل له فضل. انها ضلالة قديمة ، نشأت في أوساط متحللة ، انتسـبت الـى التصوف ، تسابا باطلا ، وحاربوها ممثلوا التصوف في كل عصر وبيئة. قال الجنيد: "ان هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا ') .

) أبو اسحق إبراهيم بن أدهم بن المنصور من كورة بلخ.المتوفى ٦١ هــ ٧٨' م) زاهد مشهور، كان أبوه من أهل الغنى في بلخ. تفقه ورحل الى بغداد وجال في العرق والشام والحجاز، وأخذ عن كثير من علماء الأقطار الثلاث ، تعلم اسم الله الأعظم من رجل بالبادية ودخل مكة. وكان يعيش من عمل يده بالحصاد والطحـن وحفـظ البساتين ، بعد أن كان أميرا من أبناء الملوك. واشترك مع الغزاة في قتال الروم، وكان يصوم في السفر والإقامة. وكان سفيان الثوري يوجز موعظته إذا حضر ابن أدهـم مخافة أن يزل. توفي عام ٦١ هــ. {ينظر: الأعلام ، للزركلي ٣١ ، وتـاريخ فلاسفة الإسلام ٨١ }.

') المنقذ من الضلال ٢٤٥ .



المطلب الثـاني

مصادر التصوف الإسلامي

يرى أغلب العلماء المهتمون بالتصوف الإسلامي أن جذوره إسلامية خالصة، وأنه يستند الى الشرع وأحكامه في عقائده وسلوكه، وترفض أن يكون مستمدا ووافدا من ثقافة أخرى كما يعتقد فريق آخر، وهناك فريق آخر يرى أن مرجعية التصوف الإسلامي هي إسلامية ابتـداءا، ولكنها استفادت من خبرات أمم أخرى سبقتها في هذا المجال كالهنود والفـرس والإغريق واليهود والنصارى. وسأعتمد التيار الأخير كونه يقدم مساحة أوسع لبحث القضية، فهو يرى أن التصوف الإسلامي يعتمد في تكونـه وتطوره على عناصر داخلية نابعة من جوهر الدين الإسلامي ودسـتوره القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وكذلك عناصر خارجية تأثر فيهـا كان في مقدمتها وما يهمنا هنا هو العامل الثقافي الهندي.

. **العامل الإسلامي:** وهو المصدر الداخلي والأساس في تكـون هـذا الفكر، وعناصره هما القرآن الكريم والسنة النبوية الشـريفة وحيـاة الصحابة والتابعين. وهذا ما يراه علماء المسلمين المتقدمين عمومـا، ومن هؤلاء الغزالي الذي لم يجد ما يجذبه الـى التصـوف قراءتـه واطلاعه على فلسفة اليونان أو غيرهم، وإنما يرى أن التصوف ليس

ثقافة كسبية.. وإنما هو ذوق ومشاهدة ، يصل الإنسان إليهما عن طريق الخلوة، والرياضة والمجاهدة، والاشتياق بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية لقلب لذكر الله تعالى.)

وأختلف المستشرقون حول مصدرية التصوف الإسلامي ، فيرى بعضهم ومنهم (لامنس) Henri ,ammens) أن التصوف دخيل على الإسلا ، ويستدلون على رأيهم بمحاربة الخوارج والامامية له ابتداءا، ثم

) ينظر: المصدر السابق ٢١٧ .

) هنري لامنس ٨٦٢ ٩٣٧) مستشرق بلجيكي. وراهب يسوعي شديد التعصب ضد الإسلا ،. يفتقر افتقارا تاما الى النزاهة في لبحث والأمانة في نقل النصوص وفهمها. ويعد نموذجا سيئا جدا للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين كما ذكر الدكتور أحمد بدوي. ولد في بلجيكا وجاء الى بيروت في صباه، وتعلم في الكلية اليسوعية ببيروت. وبدأ حياة الرهبنة في سن ١٨٧٨ في دير لليسوعيين في قرية غزير في جبل لبنان طوال عامين، ثم درس الخطابة واللغات. وصار معلما في الكلية اليسوعية. سافر الى انكلترا ولوفان وفيينا وعاد الى بيروت ليصبح أستاذا للتاريخ الإسلامي في نفس الكلية. إنتاجه يدور حول السيرة النبوية وبداية الخلافة الإسلامية بجلنب ما قدمه من كتب ودراسات في العقيدة الإسلامية وتاريخ سوريا وآثارها. وقد تحامل على السيرة النبوية بدافع تعصبه الأعمى. وبلغت كراهيته حدا يفوق الوصف!. {ينظر: طبقات المستشرقين ، د.عبد الحميد صالح حمدان ٨٤ ١٨٥ ، مكتبة مدبولي . مصر}.

الوهابيون لاحقا. بينما يدافع (ماسينيون Louis Massignon[1]) عن وجهة نظر معاكسة وأكد "أن في القرآن البذور الحقيقية للتصوف، وهذه البذور كفيلة بتنميته دونما حاجة الى غذاء أجنبي" وقد أضاف الى ذلك قوله: " كل بيئة دينية يتوافر لتقوى أبنائها الاخلاص والتفكير تصلح لظهور التصوف". وقد شاطر (مرغليوث[2] Margoliouth, David

[1]) لويس ماسينيون ٨٨٣ ٩٦٢ م) مستشرق فرنسي. ولد في باريس ودرس فيها. اهتم بالدراسات الشرقية منذ بداية نشأته. تعلم اللغة العربية في المدرسة الوطنية الشرقية الحية وتخرج منها ع ٩٠٦ م وحصل على شهادة الدبلوم في اللغة العربية الفصحى والعامية. بدأ حياته الاستشراقية واشترك في المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين بالجزائر عام ٩٠٥ ، وهناك تعرف الى جولدتسيهر وأسين وبلاثيوس. التحق بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة عام ١٩٠٦ وبدأ أبحاثه الأثرية الإسلامية . بدأ ينشر بحوث عن التركيبة السكانية للمدن العربية. اهتم بدراسة التصوف الإسلامي ، وخصوصا فريد الدين العطار والحلاج ونشر ديوانه بالفرنسية وكتب عن الحلاج دراسات عدة ومن أبرزها أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه.ترك تراثا ثرا من المؤلفات والبحوث والدراسات وكان للتصوف الإسلامي ورجالاته النصيب الأوفر. {ينظر: طبقات المستشرقين ٩٠ ٩٣ }.

[2]) دافيد صومئيل مرجوليوث ٨٥٨ ٩٤٠) مستشرق انكليزي مشهور. درس الآداب الكلاسيكية في جامعة أكسفورد، ومنها انتقل الى اللغات السامية، وازدادت عنايته بالعربية. بدأ دراساته عن الإسلام بكتابه "محمد ونشأة الإسلام "، وقفى عليه بكتاب الإسلام " Mohammedanism . أصبح عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٢٠. له نشرات كثيرة ومنها: نشرته لكتاب معجم البلدان لياقوت، ولرسائل

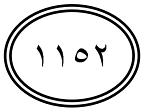
Samuel) ماسينيون رأيه ولـــم يخالفهمـــا (مكدونالـــد [1] ,Macdonald
. (Duncan Black

ودستور الإسلام قد حفل بكثير من الآيـــات القرآنيـــة التـــي تـــدعو المؤمنين الى الاهتمام بالآخرة وبذل الجهد من أجل الفـــوز برضـــا الله تعالى، وقد ذكرها مجتمعة صاحب كتاب تاريخ الفلسفة لعربية[2] . ومـــن

أبي العلاء المعري، ونشوار المحاضرة للتنوخي، ثم ترجمته لقسم من تاريخ مســـكويه: تجارب الأمم، وطبع السياسة لأرسطو بترجمة ابن حنين. كانت كتاباته عن الإســـلام غير علمية وتسري فيها روح التعصب البغيض. {ينظر:طبقات المستشرقين ٩٩ }. تصويب: ان ترجمة كلمة كتاب مرغليوث (Mohammedanism) بمعنى (الإسلام) غير دقيق، لأن المستشرقين الذين ألفوا عن الإسلام ينسبونه الى محمد ﷺ لنفي الوحي على اعتبار أن الإسلام هو فكر محمدي خالص، وليس دينا سماويـــا مـــوحى بـــه. (الباحث).

[1]) دنكن بلاك ماكدونلد ٨٦٣ ٩٤٣) مستشرق أمريكي. ولـــد في جلاســـجو (بريطانيا) وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي. واسع الاطـــلاع علـــى الـــدين الإسلامي وألف فيه عدة كتب. وكتب مقالات كثيرة باللغة الانكليزية عن الثقافـــة الإسلامية . وجمع نسخ ألف ليلة وليلة.أهم مؤلفاتـــه:تطور علـــم الكـــلام والفقـــه والنظريات الدستورية في الإسلام ، نيويورك ٩٠٣ . وله أيضا: " أوجه الإســـلام "، نيويورك ٩١١ . و"الموقف الديني والحياة الدينية في الإســـلام " شـــيكاغو ٩٠٩ . ومقالات منها: "حياة الغزالي" والتدين الانفعالي في الإسلام بحسب تأثره بالســـماع والغناء". {طبقات المستشرقين ٩٥ }.

[2]) تاريخ الفلسفة العربية ٨٨ ٢٩٠ .



ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ المنافقون: آيـ ١) - ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ البقرة: آيه ٢٦٥) . كما أن في القرآن الكريم آيات تدعو الى الـذكر ومراقبـة النفس وكثير من الأمور التي اتخذها المـ صوفون طرائـق بنـوا عليهـا مذهبهم : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ الكهف: آيـ ٢٨) وليس في القرآن آيات تحث المؤمن على الذكر والتعبد وتـرك الدنيا، بل فيه ما اعتبره الصوفيون برهانا على جميع النظريـات التـي أخذوا بها وجعلوا منها أساسا لآرائهم؛ فنجد في الذكر: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ البقرة:آيـ ١٥٢) ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ آل عمران: آيـ ١) (وفي الرضا) ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (المائدة: آيـ ٢٢) . وفي الحب ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ المائدة: آيـ ٧ . وفي القرب ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ق: آيـ ٦) . وقد ذهبوا الى أبعد من ذلك ووجدوا فـي كتاب الله مصدرا لنظريتهم في الحلول ووحدة الوجود: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ

وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ الحديد: آ ٣) - ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ البقرة: آ ١٥) . ومصدر آخر لوحدة الأديـــان ـ ع تعدد مظاهر ـ ا: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ المائدة: آ ٤١) .

وكل هذا لا يعني أن كل ما تبناه المتصوفة يرتكـــز الــــى الـــنص القرآني، ولكنهم رجعوا إليه ووجدوا فيه آيات تبرر مبادءهم. ولو كـــانوا بدأوا طريقهم في القرآن، وعملوا بموجب وصـــاياه، لكانـــت اســـتلفتت أنظارهم آيات كثيرة تحث على الدعي وراء المعاش وطلـــب الطيبـــات المشروعة والتمتع بها: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ الجمعة: آ ١٠) - ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ القصص:آية ٧٧) - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (المائدة: آية ١٠) . وهاتان النزعتان المتباينتان، نزعة الإعـــراض عـــن الـــدنيا، ونزعة السعي وراءها نجدهما أيضا في سيرة الرسول ﷺ .

وتستمر النزعتان كتوأمين في حياة الصحابة وقـــدامى المســـلمين، ونجد كثيرا من الأمثلة الواضحة للنزعتين فكان ثم تيار يساعد على تقوية روح الزهد في الإسلا ، ومن أمثلته ما قام به الصحابي الجليل الزبير بن العوام عندما ترك ما كان يملكه من أموال وأملاك. وهذا التيار يرى فيه

جولدتسيهر المظهر الحذ قي الصافي للروح الدينية. وبجانب هؤلاء وجد آخرون يرون أن حياة الايمان والتقوى لا تتعارض مع التمتع بطيبات هذا العالم حتى يحين أوان التمتع بطيبات العالم الآخر.)

وأرى أن هنالك أسباب اجتماعية عدا الدينية ساعدت التيار الأول ولنقل المحافظ على تمسكه بالزهد والانقطاع عن الدنيا وما يتعلق بها، ومن لك الأسباب الفتن والحروب التي وقعت داخل جسد الأمة ابتداءا من مقتل الخليفة عثمان بن عفان وحروب الجمل وصفين ومقتل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب، وهذا ما دفع كثير من الصحابة والتابعين الى العزلة واتخاذ النسك والزهد مسلكا يبعدهم عن الخوض في مواطن الخلاف والا شغال بها. وينقل الدكتور سليمان دنيا ما ذكره الدكتور عبد الوهاب عزام في كتابه " التصوف وفريد الدين العطار " اذ يقول: ان الفتن التي ثارت بين المسلمين فأسالت بينهم الدماء، أفزعت كثيرا من الأتقياء، وحببت إليهم الابتعاد عن مدارج الفتن جهد الطاقة، وأوحت إليهم ا! شفاق مما يعرض الدين للمآثم والشبهات فبالغوا في التورع والانقباض عن الناس. ')

' .**العامل الثقافي الهندي:** ان تأثر التصوف الإسلامي بالعامل الهندي أمر لا مجال لإنكار ، فالمسلمون قد عرفوا النساك الهنود (البوذيين)

) المصدر السابق ٢٩١ .

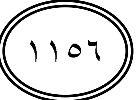
') ينظر: التفكير الفلسفي الإسلامي ٣٢٩ .

وخبروا طريقتهم، وهؤلاء كان لهم السبق في الخبرة لروحية ومعالجة المشكلات التي عرضت للمجتمع البشري، من حيث التوق الى المعرفة والاتصال بالله، وقد روى الجاحظ أن طريقتهم تنحصر في صفات أربع: القداسة والطهر والصدق والحكمة. ولكن هذه العلاقة لا تمحو الخصوصية الإسلامية للتصوف، ومن الذين غالوا في دور الهنود وأثرهم في التصوف الإسلامي طه حسين حيث أورد في كتابه ' ذكرى أبي العلاء ' الذي يرى أن التصوف الإسلامي ليس مذهبا إسلامياً خالصا وإنما هو مذهب هندي، والحقيقة التي لا تنكر أن التصوف إسلامي تداخلت إليه عناصر هندية قد دخلت عليه وأثرت فيه، وتأثيرها كان لاحقا وليس متقدم . ولم يكن إلا في مرحلة متأخرة من مراحل تطوره، ففكرة النفس الفردية في الوجود الكلي مثلا، وهي من الفكر الرئيسية، لم تدخل التصوف الإسلامي إلا مع أشهر متصوفي القرن الثالث الهجري أبي يزيد البسطامي (المتوفى سنة ٢٦٠ هـ - ٨٧٤م).[١]

وأرى أن أثر التصوف الهندي في جانب الممارسات والسلوك كان أقوى من جانب العقيدة، لأن ما يتداخل الى الساحة الإسلامية من عقائد وافدة تصطدم بتيار الدفاع عن حمى الإسلام وعقائده، المتمثل بالنخبة البارزة من علماء الأمة وجهابذتهم.

---

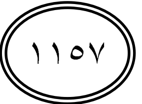
[١] ينظر: تاريخ الفلسفة العربية ٢٩٥ .



ويبدو أن ما ذهب إليه طه حسين ينتمي الى جملة من آرائه الشخصية التي حاول من خلالها تكوين شخصية تنتهج المخالفة طلبا للشهرة. وحال هذا الرأي كإنكاره الشعر الجاهلي.

٣ .**العامل المسيحي:** ويبرز أثر هذا العامل من وجود المسيحية في المجتمع العربي قبل الإسلام . فالنسك المسيحي كان منتشرا في البلدان التي دخلها الإسلام ، وتظهر معالم هذا التأثير من خلال نظرة في أقدم تراجم المتصوفين ومنها الرسالة القشيرية وقوت القلوب التي تظهر بين ثناياها الكثير من تعاليم الإنجيل وأقوال السيد المسيح عليه السلام .
وقد أشار القرآن الكريم الى الرهبان السائحين وأطراهم، قال تعالى:
﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ التوبة: آية ١١٢) . وقد انجذب المتصوفة المسلمون الى ما احتوته المسيحية من عناصر تنقل العبد من مرحلة الخوف والرهبة الى موقف الحب والعشق الذي يعتري العابد، وإذا هناك ناحية من الشاعرية تنمو وتزدهر. وقد حدد القديس أوغسطين الدرجات التي يرقى بها الإنسان الى الاتحاد وجعلها سبعة: وهي (التوبة ثم طهارة الجسد وطهارة النفس وطهارة العقل ثم الفضيلة، والخامسة هي الطمأنينة والسادسة الدخول في النور والسابعة المشاهدة). ()

() ينظر: المصدر السابق ٩٧ ٣٠٠ .

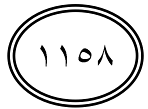


وأظن أن هذه المباديء والقيم استحسنها المتصوفة كونها نابعة من عقيدة دين سماوي مصدره مع الإسلام واحد في الإلهام والوحي وهو الله تعالى، إضافة الى خبرة المسلمين ومخالطتهم للمسيحيين قبل الإسلام وبعده، فكان السلوك الزهدي لدى الرهبان نقطة جذب استقطبت الناس إليه سابقا والمتصوفة لاحقا.

. **الأفلاطونية الحديثة** : لم يكن التصوف دينا أو مذهبا فلسفيا في البداية، بل كان خلقا دينيا يقوم على قهر النفس ويتغذى بالتأمل والصلاة. لكنه اصطبغ لاحقا بالأفلاطونية الحديثة.

ومن الباحثين من يرى أن أثر أفلاطون في التصوف واضح عند كثير من المتصوفة، إذ اعتبروه شيخا من شيوخهم، بالرغم من عدم تكلم أفلاطون بما تكلم به كثير منهم في مواضيع الاتحاد أو الحلول ولم يصرح بوحدة الوجود كما صرحوا بها، علما أنه لم تعرف عن أفلاطون تجربة صوفية ... فأفلاطون كان المبشر الأول والباني الحقيقي لعلم الأخلاق، والتصوف في نهاية الأمر مذهب أخلاقي لتطهير النفس ... وقد اتخذ المتصوفون على اختلاف مشاربهم من فكرة أفلاطون عن النفس أساسا لوضعهم المعراج الروحي.)

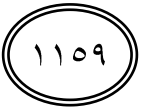
) ينظر: الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام ٣٢٣ .



٤. **العامل الاشراقي** : ان فكرة الإشراق (وهو اسم يعني السنا والبهاء وإشراق الشمس عند طلوعها). ونستطيع أن نفهم منها الحكمة أو الحكمة اللدنية التي يشكل الإشراق أصلها، باعتبار أنه يمثل ظهور وإشراق الكائن معا، وفعل الوجدان الذي يكشف هذا الكائن؛ وعندما يكشفه يقوده الى الظهور (ويجعل منه ظاهرة hainomenon'). وكما أن هذا المصطلح يعني في العالم الحسي سناء وبهاء الصبح وأول بريق النجم، كذلك فانه يعني في سماء الروح "المثالية" لحظة تجلي المعرفة. والمقصود بحكمة الإشراق هي: الحكمة المؤسسة على الإشراق التي هو الكشف، أو حكمة المشارقة الذين هم أهل فارس، وهو يرجع الى الأول لأن حكمتهم كشفية ذوقية، فنسبت الى الإشراق الذي هو ظهور الأنوار العقلية ولمعانها وفيضانها بالاشراقات على الأنفس عند تجردها.)

ويعتبر شهاب الدين يحيى السهروردي الملقب بشيخ الإشراق أشهر رجالات الإشراق ، ومؤلفه "حكمة الإشراق" أشهر ما كتب في هذا المجال.

) ينظر: تاريخ الفلسفة الإسلامية ٣٠٩ ، و تاريخ الفلسفة العربية ٣٠٣ .



المطلب الثالث

خصائص التصوف الإسلامي تصوراته

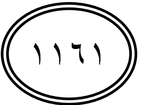
سبق وأن بينا أن أصول التصوف الإسلامي ومرجعيته مستمدة من الإسلا ، ممثلا بمصادره التشريعية الأساس (الكتاب والسنة)، والمتتبع لفكر التصوف الإسلامي (الأصيل) يجد أن فيه من السمات والخصائص التي استطاع بفضلها أن يحافظ على خصوصيته، برغم ما تداخل إليه من هنا أو هناك، من أفكار وممارسات كادت أن تمحو رصيده الثر، لولا الحصانة والمتانة التي امتاز بها. وأريد هنا أن أبرز أهم الجوانب التي طبعت الفكر الصوفي الأصيل ومسيرته على مر الزمن، فتبلور هذا الفكر في نهاية القرن الثاني الهجري كما يرى المؤرخون، وبروزه في ساحة الفكر الإسلامي في القرن الثالث بجانب تيارات وأفكارا وحركات متعددة المشارب ظهرت في تلك الفترة، يشهد بما لا يقبل التشكيك لحيوية الإسلام وتجسيد مميزاته، ومنها عطاؤه الدائم لكل جيل بعيدا عن الجمود والقصور في مسايرة حركة المجتمع وتطوره.

وفيما يلي أبرز الخصائص التي وجد ها من خلال دراستي لواقع الفكر الصوفي وحركة التصوف منذ تشكلها ولحد يومنا هذا :

. أن التصوف منضبط بضوابط الشرع (الكتاب والسنة)، ونسبته الى الإسلام تبين مقدار التمسك بثوابت الإسلا ، مما يخرج عن دائرته كل البدع والأفكار والممارسات التي تتعارض مع الشرع، وبتع ير أدق لا تنسجم مع روحه وأصالته. لذلك نرى أن أعلام التصوف قد انبروا وحاربوا كل البدع والانحرافات العقائدية التي حاولت أن تتسلل الى الإسلام تحت غطاء صوفي ومنها عقيدة الاتحاد والحلول ووحدة الوجود، فالغزالي يكشف معايبها ويفضح بواطنها. ويذكر كارا دو فو موقف غزالي ومعالجته للقضية من منطلق: أنها تنشأ على الخصوص، عن محاولة عرض أحوال بالألفاظ التي لا يمكن التعبير عنها، وهو لا يريد أن يتكلم عن مقر في الله ولا عن اتحاد أو اتصال به، وهو يصب اللعنة على الفكرة الإلحادية التي يمكن أن تحدثها هذه التعابير في النفوس، وذلك من غير أن يبدي أي تردد في أمر المذهب من هذه الناحية، والخلاصة أنه يقرر نظرية معتدلة عن التصوف السني الذي يبعد مذهب وحدة الوجود.)

وهذه الحساسية التي أظهرها الغزالي نابعة من الحرص على عقيدة التوحيد خالصة من أي شائبة، وهي نقطة أساسية نجدها في مذهب الجنيد البغدادي، فالتوحيد عنده أساس تجربة الاتحاد الصوفي، ولكنه لا يخضع هذه القضية للبرهان المنطقي وحجج العقل كما هو حال

) ينظر: الغزالي ١٨٤ .



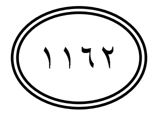
علماء الكلام وحسب، بل يرى أن في التصوف عيش لوحدة الله المتعالية نفسها.)

والفرق في التوحيد بين المسلم السني والصوفي، أن السني يفهم التوحيد على أنه وحدانية مطلقة، بمعنى مغايرته التامة للعالم، وهذا ينتج ثنائية متباعدة لا تتداخل، وحقيقتان اثنتان: الله والعالم، فهاتان الحقيقتان متغايرتان، وهذا ما ينكره الصوفية، فهم لا يرون الا موجودا واحدا هو الله الحق الأوحد الكامن وراء الموجودات جميعا؛ فكثرة موجودات عندهم فيض من الله صدر عنه دون أن يدخل الكثرة فيه أو يخل بوحدانيته. ')

' . الايجابية التي عاشها أعلام التصوف الإسلامي ، فالتصوف عندهم لا يعني اعتزال المجتمع والانشغال بالرياضة والمجاهدة بعيدا عن نشاط المجتمع وحركته، فمتصوفوا الإسلام كانوا جزءا مؤثرا , فاعلا لا يعفون أنفسهم من التزامات تقع عليهم باعتبارهم جزء من نسيج اجتماعي واسع. فإبراهيم بن أدهم قد اشترك في قتال الروم وكان جنديا مدافعا عن حمى الإسلام في صفوف الجيش الإسلامي ، والحلاج نراه قد ترك الخرقة التي كان يلبسها، ويرتدي كعامة الناس من اللباس، وقد رحل يطوف في الهند وفارس وغيرهما، ينشر أفكاره ويبشر بتجربته الروحية، وقد حقق التفاف الناس حوله ومتابعته.

) ينظر: تاريخ الفلسفة الإسلامية ٢٩٢ .

') ينظر: تاريخ الفلسفة العربية ٣٢٧ - ٣٢٨ .



والشيخ معروف الكرخي كان مبدؤه العمل وهو في عرفه طاعة الله تعالى وخدمة المسلمين والنصح لهم. وقيل أن بشر الحافي بلغ منازل الأبرار بإتباعه السنة وخدمة الصد حين ونصيحته لإخوانه ومحبته لأصحابه وأهل بيته. (١)

ويذكر التاريخ صفحات مشرقة عن دور د صد وفة قدامى ومعاصرين، كان لهم السبق في الجهاد ومقاتلة الأعداء ، إحساساً منهم بواجبهم الديني والأخلاقي والاجتماعي، فلم تهن عزائمهم ولم تخر قواهم في طلب الشهادة. (٢)

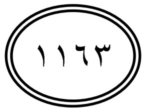
٣. الرود نية التي ميزت التصوف الإسلامي ، ونتلمس أثر هذه الروحانية في الفرح والسعادة التي كانت تظهر على وجوه المتصوفة وتطبع شخصياتهم، بعكس كثير من التيارات الصوفية الأخرى خارج دائرة الإسلا ، فإنها موسومة بالتشاؤم والسلبية، وأجد أن مرجع ذلك الى استمدادها لهذه الروحانة من الإسلام دين الرحمة والمحبة. ومنه قول أحدهم: "الصوفية قوم آثروا الله على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء" ومنه أيضا "تمنيت أن أراك، فلما رأيتك غلبت دهشة السرور فلم أملك البكاء". (٣)

---

(١) ينظر: تاريخ فلاسفة الإسلام ٢٨٢ .

(٢) ينظر: المنقذ من الضلال ١٣ - ١٦ .

(٣) ينظر: تاريخ الفلسفة العربية ٣٠٩ .



ومن هذه الروحانية ولدت المحبة التي طبعت المتصوفة، ولم يقف الحب عند لذات الإلهية بل تعداه الى سائر المخلوقات، فصفت نفوسهم من كدر الحقد ورواسب البغض، يقول ابن عربي:

لقد صار قلبي قابلا كل صورة   فمرعى لغزلان، ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف   وألواح توراة ، وصحف لقرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت   ركائبه فالحب ديني وايماني

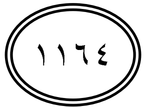
وتقول رابعة العدوية:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي   وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس   وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي)

: . التسليم والقناعة التامة من خلال المقامات والأحوال، وقد رسمت على أيدي ، تقدمي هذا التيار الإسلامي ، ففي القرن الثالث الهجري اكتمل كيان التصوف واستقرت دعائمه وبرز رجاله، وتحددت ملامح الطريق من مقامات يمر بها السالك: كالزهد والتوبة والورع والصبر والتوكل والرضا، وهذا الأخير عندهم أرقى المقامات، يقول الغزالي عن الرضا:"ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المقربين" ، وتقول عنه رابعة العدوية: "ان العبد يكون راضيا عن الله إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة".

) ا صدر السابق ٢٢٢ - ٣٢٣ .



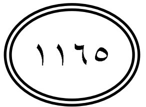
وكذلك الأحوال، وقد عدها بعضهم على أنها عشرة أحـــوال هـــي: المراقبة، القرب، المحبة، الخوف، الرجاء، الشوق، الأنس، الطمأنينـــ ، المشاهدة، اليقين. وهذه المنظومة الأخلاقية هي الوسيلة للـــتخلص مـــن شوائب الإثم وأفكار السوء، فمن خلالها تتطهر النفس وتصفو مـــن كـــل الخصال المذمومة واستبدالها بأضدادها حتى يموت الإنسان فـــي نفســـه ليحيا في الله.)

وجملة الخصال الحميدة التي ازدحم بها منهج التصـ وف تتطلـــب دعما للسالك حتى يستطيع تتبعها والالتزام بها، لذلك نجد عند الصـــوفية علاقة المريد بالشيخ "المرشد" وتسليمه له، بحيث تكون طاعتـــه عميـــاء وصولا الى حال تسمى "فناء النفس في الشيخ".

فمن جملة هذه الخصائص التي وجدتها أصيلة في فكر أصيل، ومـــا أقصده دوما في لفكر الصوفي الإســـلامي الأصـــيل، احتـــرازا عـــن ممارسات دخيلة وأفكارا شاذة تتبناها هذه الجماعة أو تلك، هذا الشخص المدعي أو غيره ومنها: أكل الحيات والأفاعي وشظايا الزجاج واللهـــب، ووخز البدن بأبر من الحديد المحمي، وكذلك الرقص الذي برره منتحلوه على أنه يمثل دورة الأفلا ك، وعادة تمزيق الثياب أثناء الذكر، وهي تشبه بتقليد الأمراء الذين يمزقون ثيابهم طربا لما تشدوا به القيان. ')

) المصدر السابق ٢١٥ - ٣١٦ .

') ينظر: تاريخ فلاسفة الإسلام ٢٨٥ .



المطلب الرابـــع

عناصر التأثير الهندي في التصوف الإسلامي

ولتحديد عناصر التأثير الهندي في التصوف الإسلامي لا بـــد مـــن تشخيص وإبراز تلك العناصر وأهمها ما يلي :

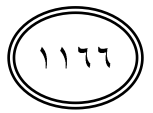
. فكرة الفناء الذاتي في الوجود الكلي ، وسماها الصـــوفيون "الفنـــاء" و"المحو" و"الاستهلاك" وهي قوية العلاقة "بالنيرفانا" الهندية، وفكـــرة الفناء والنرفانا معناهما: فناء الخصال السيئة والأفعال القبيحة عنهـــا باستدامة الاتصال بما ينافيها من خصـــال و فعـــال، وكـــذلك فنـــاء الشخصية وتلاشيها وانعدام الشعور بالوجود الذاتي. وقد بينت ســـابقا الفرق بين النيرفانا الهندية والفناء الصوفي، كون الفنـــاء الصـــوفي يؤدي الى الحياة الخالدة في الله والشعور بأن الذاتين ذات واحدة، ومن ذلك قول أحدهم:

مزجت روحك في روحي كما   تمزج الخمرة بالماء الزلال

فـــإذا مســـك شيء مســـني   فـــإذا أنت أنـــا في كل حال

أما النيرفانا الهندية فهي العدم من خلال الفناء فـــي الـــنفس الكليـــة. ويصف أبو طالب المكي (المتوفى ســـ ٨٦' هــــ ٩٦، م) الطريـــق

) ينظر تفاصيل هذه العناصر في: المصدر السابق ١٩٦؛ - ٢٩٧ .



الأخلاقي لخلاص النفس وعبودية الهوى الى طريق الكمال، وذلك بأن يملك الإنسان نفسه ويسخرها، ويتسلط عليها بدل أن تتسلط عليه، ويقول في كتابه قوت القلوب: "ان لم تملك نفسك ملكتك، وان لم تضف عليها اتسعت عليك، فان أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها.. وان أردت أن تقوى عليها فأضعفها بقطع أسباب هواها وحبس مواد شهوتها وإلا قويت عليك وصرعتك". وأما مذهبه في الحب الإلهي فعنده أن كل مؤمن بالله هو محب لله. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ ، ولكن هؤلاء المحبين على مراتب من المحبة بعضها أعلى من بعض، فأشدهم حبا لله أحسنهم تخلقا بأخلاقه، مثل العلم والعفو وحسن الخلق و ستر على الخلق. (١)

ولعل ما قدمه ابن سينا في وصف حالة النفس في محبتها لله وشوقها إليه ، برسم ملامح حالها ومدارجها من خلال عينيته المشهورة التي يقول في مطلعها:

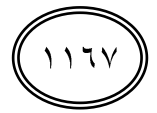
نزلت إليك من المحل الأرفع ورقــاء ذات تعزز وتمنـع

فالمحبة تورث الشوق، والشوق من المحبة ، الزهد من التوبة، إذا استقرت التوبة ظهر الزهد، وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق ... والمحبة تؤدي الى الأنس ، فالأنس"محادثة الأرواح مع المحبوب في مجالس القرب". (٢)

---

(١) ينظر: الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٢) ينظر: تاريخ الفلسفة العربية ٣٢٢ - ٣٢٣ .



ويتدرج الصوفي في اختباره، حتى يصل الى حـــال يعجــز عــن وصفها أو التعبير عنها، لأنها خاضعة لاختباره الذي يفوق الحس ويتعدى مدلول الكلام. قال الغزالي: "ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال الى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا إذا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز منه". ومن ذلك قول ابن الفارض:

يقولون لي صفها فأنت بوصفها   خبير أجل عندي بأوصافها علم

صفاء ولا مـاء ولطف ولا هوى   ونـور ولا نـار وروح ولا جسـم

٢. مراحل التدرج التي يمر بها الصوفي في رحلته للوصول الى الفناء، يقول غولد زيهر في كتابه العقيدة والشريعة: "ان معالم هذه الطريـــق مهما تباينت عند البوذيين والصوفيين فهي تشترك في صدورها عــن مبدأ واحد، وتتفق في أن التأمل – ويسمى عند الصوفيين "المراقبة" أو "الديانة" – يشغل مكانا مهما كمرحلة إعدادية للسير نحو أعلى مراتب الكمال، وذلك ء ما يصبح المتأمل وموضوع التأمل شيئا واحدا. وقد سمى إبراهيم بن الأدهم التأمل "حج العقل".

ويرفض البرهميون وبعض المتصوفة المعرفة المفضية الى الثنائيـــة التي تميز الناسك عن الكائن الكلي، على أساس "أن كل معرفة تفرض ثنائية، إذ يوجد في كل معرفة الذات التي تعرف والموضـــوع الـــذي يعرف".

٣ . الخرقة التي يلبسها المريد عندما يدخل الجماعة الصوفية، وفيها رمز الى الفقر والإعراض عن الدنيا ومباهجها، ومنها استعمال السبحة والتسبيح الذي شاع في الإسلام شيوعا كبيرا. وكذلك أخذ المسلمون عن الهنود الطرق الرياضية المتعلقة بالذكر، كما أخذوا عنهم نظام التنفس الذي يساعد على الوصول الى الانجذاب الروحي.

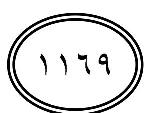
وأرى أن لبس الخرقة ليس عادة جميع المتصوفة المسلمين، فكثير منهم من لم يلبسها بل كانوا يلبسون كعامة الناس، ومنهم من نزعها لاحقا بعدما لبسها سابقا كالحلاج.

ومن المؤكد أن هذه العناصر الهندية لم تدخل دفعة واحدة الى التصوف الإسلامي ، بل تسربت إليه بجانب عناصر أخرى دخيلة أصبحت لا. قا عناصر وسمت بسمة التصوف الإسلامي مما أفقدها كثيرا من خصائصها السابقة.

ونجد الخصوصية الثابتة للتصوف الإسلامي كما يرى الغزالي من خلال تحديد الأصول التي يقوم عليها ايمان المتصوفة وقد ذكرها في كتابه ميزان العمل إذ يرى أنها: ايمان بالله تعالى وبالنبوة و اليوم الآخر، كانت رسخت في نفسه لا بدليل، بل بأسباب وقرائن وتجارب، لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها.)

ويذكر كثير من المؤرخين المسلمين ومنهم ابن حزم، أن كثيرا من آراء الهنود الدينية قد انتقلت الى بعض الفرق المنتمية للإسلا . ومن

) الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام ٣٢٩ .



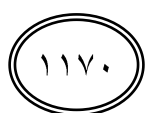
هذه الأفكار القول بتناسخ الأرواح ووحدة الوجود. فالديانة البرهمية كانت في أصلها - على ما يبدو من نصوص أسفارها - ديانة توحيد، مشوبة بعقائد وحدة الوجود، وتناسخ الأرواح، ورجوع الكائنات الى الخالق، وما الى ذلك من المعتقدات التي انتقل كثيرا منها الى التصوف الإسلامي ، ونظريات بعض رجاله، والى بعض فلاسفة المسلمين وبعض الفرق المنتمية للإسلام .)

. ممارسات هندية وفدت الى العراق والشرق العربي في القرن السابع الهجري، على أيدي متصوفون من الهنود أقرب الى الشعوذة منها الى الحكمة، فقد أدخلوا على حلقات الصوفية صنوفا من المخدرات الصناعية، وأطلقوا عليها بنج أسرار" بمعنى: الأسرار الخمسة. ')

ولا زالت بقايا هذه الممارسات الدخيلة على التصوف تمارس من قبل أغلب من يسمون بالصوفية اليوم ، وتعد من وجهة نظرهم كرامات لهم ، ومنها الطعن بالسيوف والحراب والتهام النار وجمرها الى غير ذلك. ولا أدري كيف يروج ظهور لهذه الأعمال ووضعها في خانة الكرامات ، وأغلبها تقع على أيدي أناس سلوكهم مجانب للشريعة وضوابطها ! أليس الأجدى أن تصنف في خانة الاستدراج الشيطاني وفنون السحر والشعوذة ؟! .

) ينظر: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ، د.علي عبد الواحد وافي ١٨٤ - ١٨٥ ؛ دار نهضة مصر ، القاهرة ٢٠٠٣م .

') ينظر: تاريخ فلاسفة الإسلام ٢٨٥ .



خلاصة البحث واستنتاجات الباحث

من خلال ما تم عرضه ودراسته في قضية الخلاص في الفكر الهندي الديني وأثرها في التصوف الإسلامي أستطيع أن أبرز أهم الأمور التي ظهرت من خلال بحث ودراسة الموضوع وكما يلي:

١. أن صورة الخلاص في الفكر الهندي المتمثل بأديانه الثلاثة (الهندوسية، الجينية، البوذية)، هي إبداع فكر بشري نابع من تأمل شخصي، لمعالجة قضايا اجتماعية متمثلة بالصراع الطبقي وما يستجلبه من مشاكل معقدة، إضافة الى ملء الفراغ الذهني المفتقر الى الإجابة عن تساؤلات تتعلق بالإنسان ودوره في حياته وما يعتريه فيها من إشكالات .

٢. ان معالجة الهنود لقضية الخلاص ان كانت قد قدمت له حلا لمعضلة، ففي نفس الوقت أوقعته فيما هو أعقد منها، فمعالجة الهنود المثالية وفق هذه التصورات، جردت الإنسان من دوره وفاعليته في إدارة معالم الحياة، كما هو موكول له وفق نظرية الاستخلاف.

٣. قدمت العقائد الهندية الإنسان على أنه في خانة الاتهام ابتداءا، ولذلك فعليه أن يقهر نفسه ويسومها سوء العذاب، وسؤال لماذا هذا التعسف والإجحاف ؟ وجوابهم هو أن ما يقع على الإنسان من معاناة يراد منه تطهير النفس من دورات الحياة التي مرت بها.

٤ . نظرة الهنود الى الإنسان قاصرة، كونها اعتنت بالروح عناية مطلقة، وحاربت الجسد بتعسف، وهذا أفقدها التوازن في النظرة الى الإنسان بعنصريه (المادة والروح).

٥ . أضاف الفكر الهندي للتصوف الإسلامي الأصيل ممارسات وظواهر ان لم نقل عنها تنسجم مع طبيعة الإسلام وأحكامه فهي لا تتعارض مع أحكامه، ومنها أساليب الزهد ومنظومة القيم النبيلة من حب وإيثار وصدق ورحمة، ولكنه لم يستطع أن يؤثر فيه عقائديا، فالاتحاد والحلول بضاعة فكرية هندية إلا أنها رفضت وجوبهت من قبل المتصوفة الأصلاء، فلم تستقر في الفكر الصوفي بل بقيت غريبة عن جسده الإسلامي .

٦ . ان امتداد التصوف الإسلامي مستند الى العقيدة الإسلامية ، وكل ما دخل أو تداخل إليه من ثقافات الأمم والشعوب الأخرى فهو لا يخرج عن نطاق التكميل وليس التأسيس، فالتصوف منهجه إسلامي وتأثره لاحقا بممارسات وأساليب وافدة لا ينقص من قيمته، بل انها داخلة في مجال التلاقح الحضاري الايجابي المستمد من طبيعة الأمة الإسلامية وحيويتها.

٧ . ان ما تداخل الى الفكر الصوفي من نظريات وافدة، لا تدخله في دائرة الاستهلاك الفكري المجرد، بل اننا لنجد أن ما تبناه المتصوفة من قضايا، قد خضعت للبحث والتقويم (فالنيرفانا) عند الهنود تعني

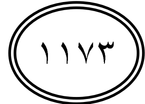
الفناء لأجل الفناء، لكن (الفناء) عند الصوفية يعني الفناء من أجل الحياة والفرق كبير بين الفريقين.

١. يمتاز التصوف الإسلامي بخصائص ه زته عن تراث الأمم الأخرى وشعوبها، فهو يرتكز الى الوحي المعصوم، ويتناول الإنسان تناولا ايجابيا باعتباره مخلوقا فاعلا متفائلا، لا عاجزا متشائما. فالمتصوف يمتاز باستقرار نفسي يميزه عن بقية الناس، فالمتصوفة كما يدعون "أنهم في لذة لو علمها الملوك لقاتلوهم عليه".

وختاما أرجو أن أكون قد قدمت في بحثي هذا ما يغطي جوانب القضية ويشمل امتداداتها، فان أصبت فالحمد لله أولا وأخر ، وان أخطأت فمن نفسي وهو ثمرة اجتهادي في عملي هذا.

والله أسال أن يجنبنا مواطن الزلل
ويبعدنا عن كل معصية وأثم
انه نعم المولى ونعم المجيب

الباحث



ثبت المصادر والمراجع

. **القرآن الكريم** .

١ . **الأديان** – دراسة تاريخية مقارنة – الديانات القديمة ، د. رشدي عليان و د. سعدون الساموك ، منشورات جامعة صدام للعلوم الإسلامية بغداد .

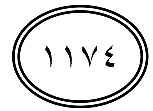
٢ . **الأديان الحية نشوؤها وتطورها** ، أديب صعب ، ط ٢ ، دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٩٥ م .

٣ .**أديان العالم** ، د.هوستن سميث ، ترجمة : سعد رستم ، ط ١ ، دار الجسور الثقافية ، حلب ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م .

٤ . **الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام** ، د. علي عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر ٢٠٠٣م .

٥ . **الأعلام** ، خير الدين الزركلي ، ط ٤ ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩ م .

٦ . **تاريخ فلاسفة الإسلام** ، محمد لطفي جمعه ، مصر ١٩٢٧ م .



١ . **تاريخ الفلسفة العربية** ، حنا الفاخوري وخليـل الجـر ؛ ط ٢ ، دار الجيل ، بيروت ٩٨٢ م .

ا . **تاريخ الفلسفة الإسلامية** ، هنري كوربـان ؛ ط ٢١ م. عويـدات ، بيروت ، باريس ٩٧٧ م .

٠ . **التفكير الفلسفي الإسلامي** ، د. سليمان دنيا ، ط ، مكتبة الخانجي ، مصر ٣٨٧ هـ - ٩٦٧ م .

١ . **طبقات المستشرقين** ، د.عبد الحميد صالح حمدان ، مكتبة مدبولي ، مصر .

٢ . **الغزالي** ، البارون كارا دو فو ، ترجمة : عـادل زعيتـر ، ط/ ' المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٩٨٤ م .

٣ . **الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام** ، د. نـاجي التكريتي ط ١ ، دار الأندلس ، بغداد ٩٧٩ م .

٤ . **قصة الحضارة** ، ول ديورانت ، ترجمة : د. زكي نجيـب محمـود ط ٣ ، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، القاهرة/ ٩٦٨ م .

٥ . **المدخل الى دراسة الأديان والمذاهب** ، العميد عبد الرزاق محمد أسود ، ط ١ ، دار الميرة والدار العربية للموسوعات ، بيروت ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

٦ . **مقارنة الأديان** ، أديان الهند الكبرى ، د.أحمد شلبي ، ط ١١ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ٢٠٠٠ م .

٧ . **المنقذ من الضلال** ، الشيخ عبد الحليم محمود ، ط ٢ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨٥ م .